# النثر العربي المعاصر: تحولات النص ومقارباته الاجتماعية والثقافية

دكتر حبيب كشاورز

دانشگاه سمنان

# Contents


الدرس الأول ..... ٣

تاريخ النثر العربي وتطوّره ..... ٣

الدرس الثاني ..... ٥

علاقة الأدب بالمجتمع وأثر الأدب في المجتمع ..... ٥

الدرس الثالث ..... ١١

علاقة الأدب بالثقافة ..... ١١

الدرس الرابع ..... ١٧

النظريات الاجتماعية والثقافية في دراسة الأدب ..... ١٧

الدرس الخامس ..... ٢٤

بيير بورديو والمقاربة الاجتماعية والثقافية للأدب ..... ٢٤

الدرس السادس ..... ٣٨

التطبيق ..... ٣٨

الدرس السابع ..... ٣٩

ستيوارت هول والثقافة والهوية والتمثيل ..... ٣٩

الدرس الثامن ..... ٥٥

التطبيق ..... ٥٥

الدرس التاسع ..... ٥٦

هومي بهابها (بابا) والهجنة والفضاء الثالث ..... ٥٦

الدرس العاشر ..... ٧٠

التطبيق ..... ٧٠

الدرس الحادي عشر ..... ٧١

إدوارد سعيد والاستشراق وتمثيل الآخر ..... ٧١

الدرس الثاني عشر ..... ٨٨

التطبيق ..... ٨٨

الدرس الثالث عشر ..... ٨٩

من المقاربة الاجتماعية والثقافية إلى تحليل النص الأدبي ..... ٨٩

## الدرس الأول

### تاريخ النثر العربي وتطوّره

يُعدّ النثر العربي من أقدم أشكال التعبير الأدبي عند العرب، وإن كان الشعر قد حظي في العصر الجاهلي بمكانة أوضح وأكثر حضورًا في الرواية والتدوين اللاحق. ولا يعني ذلك أن العرب قبل الإسلام لم يعرفوا النثر؛ فقد عرفت بيئتهم الخُطَب والوصايا والأمثال والحِكَم وسجع الكهّان والرسائل، وهي أشكال ارتبطت بالحياة القبلية والدينية والاجتماعية. غير أنّ معظم هذا النثر وصل إلينا عن طريق الرواية والتدوين في العصور الإسلامية، ولذلك ينبغي التعامل مع بعض النصوص الجاهلية بحذر من الناحية التاريخية. ويعرض شوقي ضيف هذه الأشكال ضمن دراسته للأدب الجاهلي، مع اهتمامه ببيئة الأدب ومؤثراتها الاجتماعية والثقافية.

في صدر الإسلام تأثر النثر بالقيم الجديدة التي جاء بها الإسلام، ولا سيما في الخطابة والرسائل والوصايا، كما أصبح القرآن الكريم والحديث النبوي مصدرين أساسيين في تطور الأسلوب العربي والنثر العربي. وفي العصر الأموي اتسع مجال النثر بسبب الحياة السياسية والصراعات الحزبية، فازدهرت الخطابة السياسية، ونمت الكتابة والرسائل الديوانية. ويشير شوقي ضيف في تاريخ الأدب العربي: العصر الإسلامي إلى تطور فنون النثر وصورها الخطابية والكتابية في هذه المرحلة.

أما العصر العباسي فشهد تحولًا مهمًا في تاريخ النثر العربي؛ فقد أدت الحياة الحضرية، واتساع الدولة، واختلاط العرب بغيرهم، وحركة الترجمة، ونشاط العلوم والفكر إلى توسيع موضوعات النثر وأساليبه. وبرزت الرسائل والكتابة الديوانية والأدب الفكري والقصصي والمقامات، وظهر كتّاب كبار مثل الجاحظ وابن المقفع. ويربط شوقي ضيف تطور الأدب العباسي بالحياة السياسية والاجتماعية والعقلية، وبحركة الترجمة ونشاط العلوم.

وفي العصور اللاحقة استمرت أشكال النثر التقليدية، مع تفاوت في النشاط الأدبي بحسب البيئات السياسية والثقافية. ثم شهد النثر العربي تحولًا واضحًا مع عصر النهضة العربية في القرن التاسع عشر، نتيجة عوامل متعددة، منها الاتصال بالغرب، والطباعة، والصحافة، والتعليم الحديث، والترجمة. فظهرت وتطورت المقالة والصحافة والرواية والقصة القصيرة والمسرحية، وأصبح النثر أكثر ارتباطًا بالقضايا الاجتماعية والسياسية والفكرية.

وفي العصر الحديث والمعاصر لم يعد النثر مجرد وسيلة للتعبير الأدبي، بل أصبح مجالًا واسعًا لتمثيل التحولات التي عرفها المجتمع العربي: الاستعمار والتحرر، والتحولات السياسية، والمدينة، والهجرة، والاغتراب، والهوية، والعلاقة مع الآخر، وتغير القيم الاجتماعية والثقافية. ومن هنا انتقل النثر العربي المعاصر، ولا سيما الرواية والقصة، إلى مساحة تسمح بقراءة الأدب بوصفه تعبيرًا عن المجتمع والثقافة، وفي الوقت نفسه خطابًا يشارك في تشكيل تصورات الإنسان عن ذاته ومجتمعه والآخر.

ولذلك فإن دراسة النثر العربي المعاصر لا تقتصر على تتبع تطور الأجناس والأساليب، وإنما يمكن أن تتجه أيضًا إلى سؤال أوسع: كيف يتفاعل النص النثري مع المجتمع والثقافة التي أنتجته؟ وهذا هو المدخل الذي تقوم عليه المقاربة الاجتماعية والثقافية في دراسة النثر العربي.

**مراجع أساسية للتوسع:**

شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي: العصر الجاهلي، دار المعارف. وتتناول السلسلة تاريخ الأدب من الجاهلية مع مراعاة البيئة والمؤثرات الثقافية والاجتماعية.

شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي: العصر الإسلامي، دار المعارف، ويتناول صدر الإسلام والعصر الأموي وتطور فنون النثر الخطابية والكتابية.

شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي: العصر العباسي الأول، دار المعارف، وفيه ربط واضح بين الأدب والحياة السياسية والاجتماعية والعقلية وحركة الترجمة.

عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، وهو عمل واسع يمتد من العصر الجاهلي إلى العصور اللاحقة، ويعرض الأجناس الأدبية وتطورها ضمن سياقاتها التاريخية.

## الدرس الثاني

### علاقة الأدب بالمجتمع وأثر الأدب في المجتمع

لا يمكن فهم الأدب بمعزل عن المجتمع الذي ينشأ فيه؛ فالأديب يعيش داخل بيئة اجتماعية وثقافية وتاريخية محددة، ويتأثر بقيمها ومشكلاتها وتحولاتها، ثم يعيد تمثيل هذه العناصر في عمله الأدبي بطريقة فنية خاصة. ومن هنا نشأت علاقة وثيقة بين الأدب والمجتمع، وهي علاقة لا تقوم على التأثير في اتجاه واحد، بل تقوم على التفاعل المتبادل؛ فالمجتمع يؤثر في الأدب، والأدب بدوره يمكن أن يؤثر في وعي المجتمع وتصوره لذاته وللعالم.

**١. الأدب والمجتمع في التراث العربي**

تظهر الصلة بين الأدب والمجتمع منذ المراحل الأولى للأدب العربي. ففي العصر الجاهلي ارتبط الشعر والخطابة والأمثال بالحياة القبلية، فعبّرت النصوص عن قيم الشجاعة والكرم والوفاء والحماية والثأر والعصبية، كما أسهمت في الدفاع عن القبيلة وتخليد مآثرها. ولم يكن الأدب في تلك البيئة نشاطًا منفصلًا عن الحياة الاجتماعية، بل كان جزءًا من بنية المجتمع ووظائفه الرمزية.

وفي صدر الإسلام والعصر الأموي تغيرت وظائف الأدب نتيجة التحولات الدينية والسياسية والاجتماعية. وبرزت الخطابة والرسائل باعتبارها وسائل للتعبير عن المواقف السياسية والفكرية، كما ظهرت اتجاهات أدبية ارتبطت بالصراعات السياسية والقبلية والفكرية في المجتمع الأموي.

أما في العصر العباسي، فقد أصبحت العلاقة بين النثر والمجتمع أكثر وضوحًا بسبب اتساع الدولة، ونمو المدن، واختلاط الشعوب والثقافات، وازدهار الحياة الفكرية. ويُعدّ الجاحظ نموذجًا مهمًا في هذا المجال؛ إذ لم يكن نثره منفصلًا عن الحياة الاجتماعية التي عاشها. ففي البيان والتبيين جمع الخطب والرسائل والأخبار والنصوص التي تكشف عن طبيعة التواصل والجدل والخطاب في المجتمع العباسي، بينما يقدم البخلاء صورًا اجتماعية متعددة لسلوك الأفراد وعاداتهم وأنماط حياتهم.

ومن هنا يمكن القول إن النثر العربي القديم لم يكن مجرد صياغة لغوية أو جمالية، بل كان في كثير من نماذجه وثيقة أدبية تكشف جوانب من الحياة الاجتماعية والفكرية

والسياسية، مع ضرورة التمييز بين النص الأدبي بوصفه عملًا فنيًا وبين استخدامه بوصفه مصدرًا تاريخيًا.

### ٢. الأدب والمجتمع في العصر الحديث

أصبحت العلاقة بين الأدب والمجتمع أكثر وضوحًا في العصر الحديث، ولا سيما منذ عصر النهضة العربية. فقد أدت عوامل مثل ظهور الصحافة والطباعة والتعليم الحديث، والاحتكاك بالغرب، والاستعمار، ونشوء الدولة الحديثة، إلى ظهور موضوعات وأشكال أدبية جديدة.

وتطورت المقالة والرواية والقصة القصيرة والمسرحية، وأصبح النثر بصورة خاصة مجالًا واسعًا للتعبير عن قضايا المجتمع. فالرواية، مثلًا، استطاعت أن تقدم صورة للحياة اليومية، والعلاقات الأسرية، والطبقات الاجتماعية، والمدينة، والفقر، والمرأة، والتعليم، والاستعمار، والتحولات السياسية والثقافية.

ويمثل نجيب محفوظ مثالًا واضحًا على هذا الاتجاه؛ إذ أصبحت القاهرة، بأحيائها وشخصياتها وعلاقاتها الاجتماعية، عنصرًا أساسيًا في كثير من أعماله الروائية. ولا يعني ذلك أن الرواية مجرد «صورة فوتوغرافية» للمجتمع، وإنما إن الكاتب ينتقي عناصر من الواقع ويعيد تنظيمها داخل بناء فني ودلالي.

وقد اهتم طه حسين بصورة واضحة بالعلاقة بين الأدب والمجتمع. ففي فصول في الأدب والنقد ينظر إلى الأديب بوصفه كائنًا اجتماعيًا، ويربط فهم العمل الأدبي بفهم الجماعة والثقافة والمشكلات التي نشأ في إطارها. وهذا التصور يجعل دراسة النص مرتبطة، إلى حد ما، بدراسة البيئة الاجتماعية والثقافية التي أنتجته.

٣. من «الأدب بوصفه مرآة للمجتمع» إلى التفاعل بين الأدب والمجتمع

كان من الاتجاهات المبكرة في دراسة العلاقة بين الأدب والمجتمع النظر إلى الأدب باعتباره مرآة للمجتمع؛ أي أن النص الأدبي يعكس الواقع الاجتماعي الذي نشأ فيه.

غير أن هذا التصور وحده لا يكفي لتفسير الأدب؛ لأن الأديب لا ينقل الواقع كما هو، بل يختار منه عناصر معينة، ويعيد ترتيبها، ويمنحها دلالات جديدة. ولذلك يمكن النظر إلى الأدب بوصفه تمثيلًا للواقع لا مجرد انعكاس آلي له.

وهنا تظهر أهمية السؤال الآتي:

هل الأدب يعكس المجتمع فقط، أم يستطيع أن يشارك في تغييره؟

إن الأدب يمكن أن يؤثر في المجتمع من خلال إثارة الأسئلة، وكشف بعض المشكلات، وتغيير طريقة النظر إلى فئات أو قضايا معينة، وإعادة بناء صورة الإنسان عن نفسه وعن الآخرين. وقد لا يكون هذا التأثير مباشرًا أو قابلًا للقياس بسهولة، ولذلك لا ينبغي القول إن رواية معينة «غيّرت المجتمع» بصورة قطعية، بل يمكن الحديث عن قدرتها على المساهمة في تشكيل الوعي الاجتماعي والثقافي.

### ٤. النثر العربي وقضايا المجتمع

تظهر هذه العلاقة بصورة خاصة في النثر العربي الحديث والمعاصر، لأن الرواية والقصة والمسرحية والمقالة تملك قدرة كبيرة على تقديم الشخصيات داخل سياقات اجتماعية محددة.

ومن أهم القضايا التي تناولها النثر العربي الحديث والمعاصر:

الطبقات الاجتماعية والفقر واللامساواة.

المرأة والعلاقات الأسرية.

الاستعمار والتحرر الوطني.

السلطة والقمع السياسي.

الهجرة والاغتراب.

الهوية والانتماء.

العلاقة بين الشرق والغرب.

المدينة والتحولات الاجتماعية.

الحرب وآثارها في الفرد والمجتمع.

التغير في القيم والعادات.

الاستهلاك والتحولات الاقتصادية.

علاقة الفرد بالجماعة.

ومن ثم يمكن للباحث أن يطرح أسئلة مثل: كيف يصور النص المجتمع؟ ومن الفئات التي يمنحها حق الكلام؟ ومن الفئات التي يهمشها؟ وما القيم التي يؤيدها النص أو ينتقدها؟ وكيف تمثل الشخصيات السلطة والطبقة والجنس والهوية؟

وهذه الأسئلة تنقل دراسة النثر من مجرد وصف الأحداث والشخصيات إلى دراسة العلاقات الاجتماعية والثقافية التي ينتج النص من داخلها ويعيد تمثيلها.

**٥. مفهوم «الأدب الملتزم»**

يرتبط مفهوم الأدب الملتزم بصورة خاصة بالنقد والأدب الحديثين، وقد اكتسب المفهوم دلالته النظرية الأبرز في القرن العشرين، ولا سيما مع الفيلسوف والكاتب الفرنسي جان بول سارتر. والمقصود بالالتزام، في صورته العامة، أن الكاتب لا ينظر إلى الكتابة باعتبارها نشاطًا جماليًا منعزلًا عن العالم، وإنما يدرك مسؤوليته تجاه الإنسان وقضايا عصره.

وقد ارتبط مفهوم الالتزام في أوروبا بالظروف السياسية والفكرية التي أعقبت الحرب العالمية الثانية، ثم انتقل إلى الثقافة العربية، ولا سيما مع صعود الاتجاهات الواقعية والماركسية وحركات التحرر الوطني. وأصبح الأدب الملتزم مرتبطًا بقضايا مثل الاستعمار، والتحرر، والعدالة الاجتماعية، والفقر، والاضطهاد، والقضية الفلسطينية.

وفي النقد العربي، ارتبط مفهوم الالتزام بالواقعية وبعدد من النقاد والمفكرين، ومنهم محمود أمين العالم وعبد العظيم أنيس وغالي شكري. فقد رأى الاتجاه الواقعي أن الأدب مرتبط بالحياة الاجتماعية والإنسانية، وأن العمل الأدبي يمكن أن يتناول قضايا الحرب والسلام والتحرر من الاستعمار والمشكلات الاجتماعية.

لكن ينبغي عدم مساواة الأدب الملتزم بالأدب الذي يقدم شعارات سياسية مباشرة. فالالتزام يمكن أن يظهر من خلال اختيار الموضوع، وبناء الشخصيات، وتمثيل المهمشين، وكشف علاقات السلطة، أو مساءلة القيم السائدة، من دون أن يتحول النص إلى خطاب سياسي مباشر.

كذلك لا يعني الالتزام بالضرورة التضحية بالقيمة الفنية؛ فقد أكد شوقي ضيف، في حديثه عن الالتزام، أن الالتزام لا يتعارض في ذاته مع الإبداع والتفرد والقيمة الجمالية، بل يمكن أن يكون تعبيرًا عن وعي الأديب بمسؤوليته تجاه الحياة.

### ٦. أثر الأدب في المجتمع

إذا كان المجتمع يؤثر في الأدب، فإن الأدب يمكن أن يؤثر في المجتمع أيضًا، ولكن هذا التأثير ينبغي فهمه بوصفه تأثيرًا ثقافيًا ورمزيًا أكثر من كونه تأثيرًا مباشرًا.

يمكن للأدب أن:

١. يكشف مشكلات اجتماعية قد تكون غير مرئية أو غير مطروحة بصورة واضحة.

٢. يمنح صوتًا للفئات المهمشة من خلال تحويل تجاربها إلى موضوع أدبي.

٣. يعيد تشكيل صورة الآخر، سواء كان الآخر طبقيًا أو ثقافيًا أو قوميًّا أو دينيًا.

٤. يسهم في نقد القيم السائدة من خلال تقديم شخصيات وتجارب تتعارض معها.

٥. يوسع قدرة القارئ على فهم تجارب الآخرين من خلال التجربة التخيلية.

٦. يحفظ الذاكرة الاجتماعية من خلال تسجيل تجارب الأفراد والجماعات في صورة فنية.

٧. يسهم في تشكيل الوعي بالهوية من خلال تمثيل علاقة الفرد بالمجتمع والوطن والثقافة.

ولهذا فإن تأثير الأدب لا ينبغي أن يُفهم على أنه علاقة سببية بسيطة: «رواية ← تغيير المجتمع». فالأدب يدخل في شبكة واسعة من المؤسسات والخطابات، مثل التعليم والإعلام والسياسة والأسرة والمؤسسات الثقافية، ويتفاعل معها.

خلاصة

يمكن تلخيص العلاقة بين الأدب والمجتمع في ثلاث مراحل مترابطة:

المجتمع ← يؤثر في الأدب ← الأدب يعيد تمثيل المجتمع ← الأدب يمكن أن يؤثر في الوعي بالمجتمع.

وعليه، فإن المقاربة الاجتماعية للنثر العربي لا تسأل فقط: «ماذا يقول النص عن المجتمع؟»، بل تسأل أيضًا: «كيف يصور النص المجتمع؟ وما القيم والعلاقات

والسلطات التي يكشفها أو ينتقدها؟ وكيف يمكن لهذا التمثيل الأدبي أن يسهم في تشكيل رؤية القارئ إلى المجتمع؟»

وهذه النقطة تمهّد للانتقال من دراسة علاقة الأدب بالمجتمع إلى دراسة علاقة الأدب بالثقافة، ثم إلى النظريات الاجتماعية والثقافية التي تحاول تفسير هذه العلاقات.

## الدرس الثالث

### علاقة الأدب بالثقافة

إذا كان الأدب نتاجًا للمجتمع الذي ينشأ فيه، فإنه في الوقت نفسه نتاج للثقافة التي تشكل وعي الإنسان داخل ذلك المجتمع. فالأديب لا يعيش في فراغ ثقافي، وإنما يتأثر باللغة والقيم والمعتقدات والعادات والتقاليد والرموز وأنماط التفكير السائدة في بيئته، ثم يعيد تمثيلها في النص الأدبي، وقد يقبلها أو ينتقدها أو يعيد صياغتها أو يقترح تصورات بديلة لها.

ومن هنا فإن العلاقة بين الأدب والثقافة علاقة تفاعلية؛ فالثقافة تؤثر في إنتاج النص الأدبي، والنص الأدبي بدوره يمكن أن يسهم في حفظ الثقافة ونقلها، أو في مساءلة بعض عناصرها وإعادة تشكيلها.

١. ماذا نعني بالثقافة؟

لا يوجد تعريف واحد جامع لمفهوم الثقافة، لأن مفهومها اتسع وتغير بحسب الاتجاهات الفكرية والأنثروبولوجية والاجتماعية. فالثقافة لا تعني فقط الفنون والآداب والمعارف الرفيعة، وإنما يمكن أن تشمل أنماط الحياة والقيم والعادات والمعتقدات والرموز وطرائق التفكير والسلوك التي يتشارك فيها أفراد جماعة معينة.

ومن التعريفات المؤثرة في الدراسات الثقافية تعريف ريموند وليامز (Raymond Williams) الذي وسّع مفهوم الثقافة من مجرد الفنون والآداب إلى معنى أوسع هو «طريقة الحياة» أو whole way of life. ويرى وليامز أن الثقافة تجمع بين المعاني المشتركة التي يعيشها أفراد المجتمع وبين الإنتاج الفني والفكري الذي يسهم في اكتشاف معانٍ جديدة.

وهذا التعريف مهم لدراسة الأدب؛ لأنه يمنعنا من الفصل الحاد بين النص الأدبي وبين الحياة اليومية التي أنتجته. فالرواية، مثلًا، لا تعكس فقط «ثقافة النخبة»، وإنما يمكن أن تكشف أيضًا عن الطعام والملابس والعلاقات الأسرية واللغة اليومية والعادات ونظرة الناس إلى الزواج والعمل والدين والمدينة والآخر وغيرها من الممارسات الثقافية.

**٢. الأدب والثقافة في الأدب العربي القديم**

كانت العلاقة بين الأدب والثقافة واضحة في التراث العربي منذ العصر الجاهلي. فقد حمل الشعر والخطابة والأمثال كثيرًا من القيم والتصورات التي كانت سائدة في المجتمع، مثل الكرم والشجاعة والوفاء والحماية والقبيلة والثأر. ومن خلال النصوص الأدبية يمكن التعرف إلى عدد من التصورات الثقافية التي كانت تنظم علاقة الفرد بالجماعة.

وفي العصر الإسلامي حدث تحول ثقافي كبير انعكس على الأدب، نتيجة ظهور الإسلام وما صاحبه من تغيرات في القيم والتصورات وأنماط الحياة. وفي العصر الأموي ظهرت في الشعر والنثر آثار الصراعات السياسية والقبلية والفكرية، بينما شهد العصر العباسي تغيرات ثقافية أوسع نتيجة اتساع الدولة، وازدهار المدن، واحتكاك العرب بثقافات أخرى، ونشاط الترجمة والحركة العلمية.

ويقدم شوقي ضيف في كتابه العصر العباسي الأول مثالًا واضحًا على هذا الربط بين الأدب والبيئة الثقافية؛ إذ يدرس الحياة السياسية والاجتماعية والعقلية والثقافية للعصر العباسي إلى جانب أدبه، ويربط ازدهار الأدب بما شهده العصر من تحضر وترف وحركة ترجمة ونشاط علمي وفكري.

ومن هنا يمكن القول إن النصوص العربية القديمة لم تكن مجرد تعبير عن الجمال اللغوي، بل كانت تحمل معها تصورات ثقافية عن الإنسان والمجتمع والقيم والعلاقات بين الأفراد والجماعات.

### ٣. الثقافة والأدب العربي الحديث

تزداد أهمية العلاقة بين الأدب والثقافة في العصر الحديث نتيجة التحولات الكبرى التي عرفتها المجتمعات العربية منذ القرن التاسع عشر. فقد أدى الاحتكاك بالغرب، وانتشار التعليم والطباعة والصحافة، ونشوء الدولة الحديثة، والاستعمار، وحركات التحرر الوطني، إلى تغيرات عميقة في الثقافة العربية.

وقد انعكست هذه التحولات بصورة واضحة في النثر، ولا سيما في الرواية والقصة القصيرة والمسرحية والمقالة. فلم تعد موضوعات النثر مرتبطة فقط بالقيم التقليدية، بل ظهرت قضايا جديدة مثل العلاقة بين القديم والحديث، والمرأة، والتعليم، والمدينة، والطبقة الاجتماعية، والاستعمار، والهوية، والهجرة، والاغتراب.

وبذلك أصبح النص النثري مجالًا للتعبير عن الصراع بين أنظمة ثقافية مختلفة، وليس مجرد تسجيل للتغير الاجتماعي.

### ٤. النثر المعاصر وتمثيل الثقافة

تتضح العلاقة بين الأدب والثقافة بصورة أكبر في النثر العربي المعاصر، ولا سيما الرواية. فالرواية قادرة على تقديم الثقافة من خلال تفاصيل الحياة اليومية والشخصيات واللغة والعلاقات الاجتماعية والرموز والأماكن.

فعندما يصف الروائي، مثلًا، علاقة الأسرة بأحد أفرادها، أو طريقة الزواج، أو موقف المجتمع من المرأة، أو علاقة الفرد بالقبيلة أو الطائفة أو الوطن، فإنه لا يقدم مجرد أحداث فردية، بل يكشف عن منظومة من القيم والتصورات الثقافية.

ولهذا يمكن للباحث أن يطرح مجموعة من الأسئلة الثقافية عند قراءة النص:

ما القيم الثقافية التي يمثلها النص؟

ما العادات والتقاليد التي تظهر فيه؟

كيف يصور النص العلاقة بين الفرد والجماعة؟

كيف تمثل المرأة والرجل؟

كيف يصور النص «الآخر»؟

ما صورة الوطن والانتماء؟

كيف تتعامل الشخصيات مع الاختلاف الثقافي؟

هل يقبل النص القيم السائدة أم ينتقدها؟

هل تظهر في النص ثقافة مهيمنة وثقافات هامشية؟

كيف تؤثر الهجرة والاحتكاك بثقافة أخرى في هوية الشخصية؟

هذه الأسئلة تجعل الثقافة موضوعًا للتحليل الأدبي وليست مجرد معلومات خارجية عن النص.

### ٥. الأدب بوصفه حافظًا للثقافة وناقدًا لها

يمكن للأدب أن يؤدي وظيفتين تبدوان متعارضتين، ولكنهما في الواقع متكاملتان.

أولًا، يمكن للأدب أن يكون وسيلة لحفظ الثقافة ونقلها. فالنصوص الأدبية تحفظ صورًا من اللغة والعادات والقيم والذاكرة الجماعية، وقد تصبح بعض الأعمال الأدبية جزءًا من الذاكرة الثقافية للمجتمع.

وثانيًا، يمكن للأدب أن يكون وسيلة لنقد الثقافة السائدة. فالأديب قد يكشف تناقضًا بين قيمة يعلنها المجتمع وممارسة فعلية، أو يعيد النظر في تقليد اجتماعي، أو يمنح صوتًا لشخصيات كانت مهمشة داخل الثقافة السائدة.

وهنا يصبح الأدب ليس مجرد «مرآة للثقافة»، وإنما مجالًا للصراع حول المعنى الثقافي نفسه.

وهذه الفكرة قريبة من التصور الذي طوره ريموند وليامز للثقافة؛ فالثقافة عنده ليست مجموعة ثابتة من القيم الموروثة، بل عملية مستمرة تجمع بين المعاني الموروثة والمعاني الجديدة التي تظهر وتُختبر داخل المجتمع.

### ٦. الثقافة والهوية في النثر العربي المعاصر

ترتبط الثقافة ارتباطًا وثيقًا بالهوية، ولذلك أصبحت الهوية من أبرز الموضوعات الثقافية في الرواية العربية المعاصرة، خصوصًا في النصوص التي تتناول الهجرة والمنفى والاغتراب والتعدد الثقافي.

فالشخصية التي تنتقل من مجتمع عربي إلى مجتمع غربي، مثلًا، قد تجد نفسها أمام منظومة جديدة من القيم والعادات واللغة وأنماط الحياة. وهنا لا يكون الصراع مجرد صراع بين مكانين، وإنما قد يتحول إلى صراع أو تفاوض بين ثقافتين.

ومن هذه الزاوية يمكن دراسة موضوعات مثل:

الهجرة ← الاحتكاك الثقافي ← إعادة تعريف الذات ← التثاقف ← الهوية

وهذا المسار سيكون مهمًا جدًا عند دراسة نظرية جون بيري ونظرية هومي بهابها في الدروس اللاحقة.

### ٧. الأدب والآخر الثقافي

من أهم مجالات التقاء الأدب بالثقافة مسألة تمثيل الآخر. فالنص الأدبي لا يقدم الشخصيات والأمم والثقافات بصورة محايدة دائمًا، وإنما قد يحمل تصورات معينة عن الآخر.

وقد أصبح هذا الموضوع أكثر أهمية في الدراسات الحديثة بعد أعمال إدوارد سعيد، ولا سيما كتابه الاستشراق وكتابه الثقافة والإمبريالية. ففي الثقافة والإمبريالية يدرس سعيد الصلات بين الإنتاج الثقافي والأدبي وبين التجربة الإمبريالية، ويبين كيف يمكن للأعمال الأدبية أن تشارك في إنتاج تصورات عن الشعوب والثقافات، كما يدرس في الوقت نفسه أشكال المقاومة وإعادة صياغة هذه التصورات من جانب الشعوب المستعمَرة.

وهذا يفتح أمام دراسة النثر العربي المعاصر أسئلة مهمة حول صورة الغرب والشرق، والعربي والأجنبي، والمهاجر والمجتمع المضيف، والذات والآخر.

### ٨. من دراسة الأدب إلى المقاربة الثقافية

بناءً على ما سبق، لا تقتصر المقاربة الثقافية للنص الأدبي على البحث عن العادات والتقاليد الموجودة فيه، وإنما تتجاوز ذلك إلى دراسة الأنساق والقيم والتصورات الثقافية التي ينتجها النص أو يعيد تمثيلها أو يناقشها.

ولهذا ظهر في النقد العربي الحديث اهتمام متزايد بما يسمى النقد الثقافي، ومن أبرز الأسماء العربية المرتبطة بهذا الاتجاه عبد الله الغذامي، الذي حاول الانتقال من التركيز على القيمة الجمالية وحدها إلى الكشف عن الأنساق الثقافية المضمرة في الخطاب الأدبي.

ولا يعني ذلك أن المقاربة الثقافية تلغي الجانب الجمالي للنص، بل يعني أنها تضيف إلى السؤال الجمالي أسئلة أخرى تتعلق بالثقافة والسلطة والهوية والتمثيل.

### خلاصة

يمكن تلخيص العلاقة بين الأدب والثقافة في ثلاث نقاط رئيسة:

الثقافة تؤثر في الأدب ← الأدب يمثل الثقافة ← الأدب يمكن أن يعيد تشكيل الثقافة.

ومن ثم فإن دراسة النثر العربي المعاصر من منظور ثقافي لا تعني البحث عن «الثقافة الموجودة في الرواية» فقط، بل تعني دراسة الطريقة التي يمثل بها النص القيم والهويات والعادات والرموز والعلاقات الثقافية، وكيف يتعامل مع الثقافة السائدة والثقافات الأخرى.

وهنا نصل إلى مرحلة جديدة في دراسة النثر العربي: فإذا كان النص يتفاعل مع المجتمع والثقافة، فكيف يمكن للنظريات الاجتماعية والثقافية أن تساعدنا على تفسير هذا التفاعل؟ وهذا السؤال يمهّد للانتقال إلى النظريات الاجتماعية والثقافية في دراسة الأدب.

## الدرس الرابع

### النظريات الاجتماعية والثقافية في دراسة الأدب

**تمهيد**

لم تكن العلاقة بين الأدب والمجتمع والثقافة موضوعًا جديدًا ظهر مع علم الاجتماع الحديث، بل إن التفكير في أثر البيئة الاجتماعية والثقافية في الأدب يعود إلى مراحل قديمة من تاريخ الفكر. غير أن دراسة هذه العلاقة بصورة منهجية ومستقلة تطورت تدريجيًا، ولا سيما منذ القرن التاسع عشر، مع ظهور علم الاجتماع وتطور الدراسات التاريخية والاجتماعية والثقافية.

ومن المهم في البداية التمييز بين الدراسة الاجتماعية للأدب والدراسة الثقافية للأدب. فالأولى تهتم بصورة خاصة بعلاقة النص بالبنية الاجتماعية والطبقات والمؤسسات والسلطة والتحولات الاجتماعية وموقع الكاتب والقارئ، بينما تركز الثانية بدرجة أكبر على القيم والرموز والهوية والتمثيلات الثقافية والعادات وأنماط الحياة وعلاقة الثقافات بعضها ببعض. ومع ذلك، فإن الحدود بين المجالين ليست حادة، ولذلك تتداخل المقاربات الاجتماعية والثقافية في كثير من الدراسات المعاصرة.

**١. ابن خلدون: المجتمع والعمران والأدب**

يحتل عبد الرحمن بن خلدون (١٣٣٢–١٤٠٦م) مكانة مهمة في تاريخ التفكير الاجتماعي العربي. فقد قدم في المقدمة تصورًا واسعًا للإنسان والمجتمع والعمران والدولة والثقافة، وحاول تفسير الظواهر التاريخية والاجتماعية من خلال قوانين وشروط تتجاوز مجرد نقل الأخبار.

ومن أهم مفاهيمه العمران والعصبية والتمييز بين البدو والحضر، إضافة إلى اهتمامه بأثر أحوال العمران في العلوم والصنائع والمعارف. وقد رأى أن اختلاف أحوال الناس في العلم والثقافة والصناعة يرتبط باختلاف أحوال العمران والحياة الاجتماعية. وتشير دراسات حديثة إلى أن المقدمة تشتمل على تصور متكامل للإنسان والمجتمع والدولة، وأن مباحثها يمكن قراءتها في ضوء علم الاجتماع والتاريخ الاجتماعي.

وتظهر أهمية ابن خلدون بالنسبة إلى دراسة الأدب بصورة خاصة في حديثه عن الشعر والملكة اللغوية والعلوم في الجزء السادس من المقدمة. فهو لا يتعامل مع الشعر واللغة باعتبارهما ظواهر منفصلة عن المجتمع، بل يربط ازدهار العلوم والصناعات

والملكة اللغوية بأحوال العمران والحضارة. وقد تناولت دراسات حديثة هذا الجانب من فكره، وبينت أن المقدمة تقدم رؤية واسعة للشعر والنظرية الشعرية في سياقها الثقافي والمعرفي.

ولذلك يمكن الإفادة من ابن خلدون بوصفه إرهاصًا مبكرًا للتفكير في العلاقة بين الثقافة والمجتمع والإنتاج الأدبي، مع تجنب إسقاط مفهوم «علم اجتماع الأدب» الحديث عليه بصورة كاملة.

### ٢. من التاريخ الاجتماعي إلى علم اجتماع الأدب في الغرب

بدأت العلاقة بين الأدب والمجتمع تأخذ طابعًا أكثر منهجية في أوروبا خلال القرن التاسع عشر، بالتزامن مع تطور الدراسات التاريخية والاجتماعية.

ومن الأسماء المهمة في هذه المرحلة مدام دي ستايل ((Madame de Staël، ولا سيما في كتابها De la littérature considérée dans ses rapports avec les institutions sociales (١٨٠٠)، حيث بحثت العلاقة بين الأدب والمؤسسات الاجتماعية والسياسية والدينية، وأكدت أن الأدب يتأثر بالبيئة الاجتماعية والتاريخية التي ينتج فيها.

ثم ظهر هيبوليت تين ( (Hippolyte Taineالذي حاول تفسير العمل الأدبي من خلال ثلاثة عناصر شهيرة:

العرق – البيئة – العصر

Race – Milieu – Moment

وقد أسهم هذا الاتجاه في ترسيخ فكرة أن العمل الأدبي لا يمكن فهمه بصورة كاملة بعيدًا عن الظروف التاريخية والاجتماعية التي أنتجته.

### ٣. الماركسية وعلاقة الأدب بالبنية الاجتماعية

مع كارل ماركس وفريدريك إنجلز انتقلت العلاقة بين الأدب والمجتمع إلى مستوى جديد، إذ أصبحت مفاهيم مثل الطبقة، والإنتاج، والأيديولوجيا، والصراع الاجتماعي أدوات مهمة لفهم الثقافة والأدب.

لم يضع ماركس وإنجلز نظرية مكتملة في «علم اجتماع الأدب»، لكن أفكارهما أصبحت أساسًا لاتجاهات واسعة في النقد الاجتماعي والماركسي. وقد تطورت هذه الاتجاهات لاحقًا عند مفكرين مثل جورج لوكاتش ((Georg Lukács، الذي اهتم بعلاقة الأدب بالبنية الاجتماعية، ولا سيما الرواية والواقعية.

ولم يعد السؤال عند لوكاتش هو: «هل يعكس الأدب المجتمع؟» بصورة مباشرة، بل أصبح الاهتمام بكيفية ظهور البنية الاجتماعية داخل طريقة بناء الشخصيات والرؤية إلى العالم والبنية الروائية. وتعد أعمال لوكاتش من المراحل الأساسية في تطور علم اجتماع الأدب، ثم تطور هذا الاتجاه عند لوسيان غولدمان ( (Lucien Goldmannالذي بحث عن أوجه التماثل بين البنى الأدبية وبعض البنى الاجتماعية والفكرية.

### ٤. من انعكاس المجتمع إلى إنتاج المعنى

كان أحد الاتجاهات الأولى في علم اجتماع الأدب ينظر إلى الأدب بوصفه انعكاسًا للواقع الاجتماعي. لكن هذا التصور تعرض للنقد؛ لأن العمل الأدبي لا ينقل الواقع بصورة آلية، وإنما يعيد تشكيله من خلال اللغة والخيال والبناء الفني.

ومن هنا تطورت المقاربات الاجتماعية من السؤال:

ماذا يعكس الأدب من المجتمع؟

إلى أسئلة أكثر تعقيدًا:

كيف يمثل الأدب المجتمع؟

كيف يعيد بناء العلاقات الاجتماعية داخل النص؟

كيف تتدخل الطبقة والسلطة والمؤسسات في إنتاج العمل الأدبي؟

ما موقع الكاتب داخل المجتمع؟

ومن يملك القدرة على إنتاج الأدب ونشره وقراءته؟

وقد ساعد هذا التحول على الانتقال من التركيز على «مضمون» العمل وحده إلى دراسة عملية إنتاج الأدب وتداوله واستقباله.

### ٥. من علم اجتماع الأدب إلى سوسيولوجيا الحقل الأدبي

يمثل بيير بورديو ( (Pierre Bourdieuمرحلة مهمة في هذا التطور. ففي كتابه Les Règles de l'art: Genèse et structure du champ littéraire (١٩٩٢)، درس الأدب من خلال مفهوم الحقل الأدبي، أي المجال الاجتماعي الذي يتفاعل داخله الكتاب والنقاد والناشرون والمؤسسات والقراء وغيرهم.

وبذلك لم يعد السؤال مقتصرًا على مضمون الرواية أو القصة، بل أصبح من الممكن دراسة:

موقع الكاتب داخل الحقل الأدبي.

المؤسسات التي تمنح الشرعية الأدبية.

العلاقة بين الأدب ومجال السلطة.

رأس المال الثقافي والرمزي.

الذوق والتمييز الاجتماعي.

شروط إنتاج العمل الأدبي وتداوله.

وهذا الاتجاه سيكون مهمًا في دراستنا اللاحقة لنظرية بورديو.

٦. الاتجاهات الثقافية ودراسة الأدب

لم تعد المقاربة الاجتماعية وحدها كافية لتفسير جميع أبعاد العلاقة بين الأدب والواقع؛ فالنصوص الأدبية لا تتعامل فقط مع الطبقات والمؤسسات، وإنما تتعامل أيضًا مع الهوية واللغة والقيم والرموز والذاكرة والصورة الثقافية للذات والآخر.

ومن هنا تطورت الدراسات الثقافية في النصف الثاني من القرن العشرين، وبرزت أسماء مثل ريموند وليامز ( (Raymond Williamsوريتشارد هوغارت ( (Richard Hoggart وستيوارت هال (.(Stuart Hall

وقد وسع ريموند وليامز مفهوم الثقافة بحيث لا تقتصر على الأعمال الفنية والفكرية، وإنما تشمل «طريقة الحياة» وما يرتبط بها من قيم وممارسات ومعانٍ مشتركة. ولذلك أصبح الأدب جزءًا من العملية الثقافية وليس مجرد منتج منفصل عنها.

أما ستيوارت هال فركز بصورة خاصة على قضايا الهوية والتمثيل والثقافة، وأصبح مفهوم «التمثيل» من المفاهيم المهمة في تحليل النصوص الأدبية والثقافية.

### ٧. الثقافة والسلطة والآخر

تطورت الدراسات الثقافية كذلك من خلال الاهتمام بعلاقة الثقافة بالسلطة. ومن أبرز الأسماء هنا أنطونيو غرامشي الذي طور مفهوم الهيمنة الثقافية، أي الطريقة التي يمكن بها للقيم والتصورات السائدة أن تصبح مقبولة ومشروعة داخل المجتمع، لا بالقوة وحدها، وإنما من خلال مؤسسات الثقافة والتعليم والإعلام وغيرها.

ثم جاء ميشيل فوكو وغيره من المفكرين الذين وسعوا البحث في العلاقة بين الخطاب والمعرفة والسلطة.

وفي السياق الاستعماري وما بعد الاستعماري، اكتسبت مسألة تمثيل «الآخر» أهمية خاصة، ولا سيما في أعمال إدوارد سعيد، الذي درس في الاستشراق والثقافة والإمبريالية العلاقة بين المعرفة والثقافة والتمثيل والسلطة الاستعمارية.

كما قدم فرانتس فانون تحليلات مهمة للآثار النفسية والاجتماعية والثقافية للاستعمار، وخاصة فيما يتعلق بالهوية والعلاقة بين المستعمِر والمستعمَر.

وهذه الاتجاهات ستكون أساسًا لبعض الموضوعات التي سندرسها لاحقًا، مثل الهوية، والآخر، والتمثيل، والاستعمار، والهيمنة الثقافية.

### ٨. الاتجاهات العربية الحديثة

في الفكر العربي الحديث والمعاصر ظهرت محاولات متعددة لدراسة الأدب في علاقته بالمجتمع والثقافة، وإن لم تتشكل دائمًا تحت اسم واحد أو في إطار نظرية موحدة.

ومن الأسماء المهمة طه حسين الذي ربط الأدب ببيئته الفكرية والاجتماعية، وسلامة موسى الذي تأثر بالاتجاهات الاجتماعية والمادية الحديثة، ثم ظهرت اتجاهات واقعية وماركسية في النقد العربي عند عدد من النقاد، مثل محمود أمين العالم وعبد العظيم أنيس وغالي شكري وغيرهم.

كما تطور لاحقًا الاهتمام بالنقد الثقافي، ومن أبرز الأسماء العربية في هذا المجال عبد الله الغذامي، الذي ركز على مفهوم النسق الثقافي وما يمكن أن يحمله الخطاب الأدبي من أنساق ثقافية ظاهرة أو مضمرة.

ولا ينبغي النظر إلى هذه الاتجاهات العربية باعتبارها مجرد نقل للنظريات الغربية؛ فقد حاول النقاد العرب توظيف المفاهيم الاجتماعية والثقافية في قراءة الأدب العربي وفي تفسير علاقته بالتحولات التي عرفها المجتمع العربي الحديث.

**٩. من هذه الاتجاهات إلى النظريات التي سندرسها**

يمكن أن نلاحظ أن دراسة العلاقة بين الأدب والمجتمع والثقافة مرت بعدة مراحل متداخلة:

البيئة الاجتماعية والتاريخية

↓

الأدب بوصفه تعبيرًا عن المجتمع

↓

الأدب والطبقة والأيديولوجيا

↓

إنتاج الأدب ومؤسساته وحقلُه الاجتماعي

↓

الثقافة والهوية والتمثيل

↓

السلطة والهيمنة والآخر

↓

التثاقف والهجنة والهوية في الأدب المعاصر

ومن هذه الخلفية يمكن فهم اختيار النظريات التي سندرسها في المحاضرات القادمة. فنحن لا ندرس مجموعة من المفكرين بصورة منفصلة، وإنما نبحث عن أدوات مختلفة لقراءة النثر العربي المعاصر.

فنظرية جون بيري تساعدنا في دراسة التثاقف واستراتيجيات تعامل الفرد مع الثقافة الجديدة، بينما تساعدنا نظرية هومي بهابها على دراسة الهجنة والفضاء الثالث والهوية الثقافية. وتتيح لنا نظرية بورديو دراسة الحقل الأدبي ورأس المال الثقافي والرمزي، في حين تساعدنا أفكار غرامشي على دراسة الهيمنة، وأفكار ستيوارت هال على دراسة الهوية والتمثيل، بينما تفتح أعمال فانون وإدوارد سعيد المجال لدراسة الاستعمار والآخر والتمثيلات الثقافية.

وهكذا يصبح الانتقال من «النظرية» إلى «النص» انتقالًا طبيعيًا؛ لأن الهدف النهائي ليس حفظ أسماء النظريات، وإنما استخدامها في قراءة النثر العربي المعاصر وتحليل علاقته بالمجتمع والثقافة والهوية والسلطة.

## الدرس الخامس

### بيير بورديو والمقاربة الاجتماعية والثقافية للأدب

تمهيد

يمثّل بيير بورديو (Pierre Bourdieu, ١٩٣٠–٢٠٠٢) أحد أبرز علماء الاجتماع الفرنسيين الذين أسهموا في دراسة العلاقة بين الأدب والمجتمع والثقافة. ولا ينظر بورديو إلى الأدب بوصفه انعكاسًا مباشرًا للمجتمع، كما لا يدرسه باعتباره نتاجًا فرديًا مستقلًا عن الظروف الاجتماعية. بل يهتم بالعلاقات الاجتماعية والثقافية التي تحيط بإنتاج العمل الأدبي وتداوله وتلقيه.

ومن هنا يمكن أن تساعد مقاربة بورديو في الإجابة عن أسئلة مثل:

من ينتج الأدب؟ وفي أي ظروف؟

ما العوامل التي تمنح الكاتب مكانة أدبية؟

كيف تتحدد قيمة العمل الأدبي؟

من يملك القدرة على تحديد ما يُعدّ أدبًا رفيعًا أو أدبًا شعبيًا؟

ما علاقة التعليم والطبقة الاجتماعية بالذوق الأدبي؟

كيف تؤثر المؤسسات الثقافية في إنتاج الأدب وتلقيه؟

كيف تظهر علاقات السلطة والهيمنة، ومنها الهيمنة الذكورية، في المجال الأدبي والثقافي؟

---

**أولًا: أهم المفاهيم في نظرية بورديو**

لا تقوم نظرية بورديو على مفهوم واحد، بل على مجموعة من المفاهيم المترابطة. وأهم المفاهيم التي نحتاج إليها في دراسة الأدب هي:

١. الحقل

٢. الرأسمال

٣. الهابيتوس / الاستعدادات المكتسبة (

٤. التمييز

٥. العنف الرمزي

٦. الهيمنة الذكورية

---

**١. الحقل:**

يُعدّ مفهوم الحقل من أهم مفاهيم بورديو.

ويقصد بالحقل فضاءً اجتماعيًا تتفاعل داخله مجموعة من الأشخاص والمؤسسات، وتوجد بينهم علاقات وتنافسات ومواقع متفاوتة في القوة والمكانة.

ولا يوجد الفرد في المجتمع بصورة منفصلة عن هذه الحقول، بل يتحرك داخل مجالات مختلفة مثل:

الحقل السياسي

الحقل الاقتصادي

الحقل الأكاديمي

الحقل الديني

الحقل الفني

الحقل الأدبي

**الحقل الأدبي**

يهتم بورديو بصورة خاصة بـ الحقل الأدبي، أي المجال الذي يتكوّن من:

الكتّاب والشعراء والروائيين؛

النقاد؛

دور النشر؛

المجلات والصحف الثقافية؛

الجامعات والمؤسسات التعليمية؛

الجوائز الأدبية؛

القرّاء؛

المؤسسات الثقافية؛

وسائل الإعلام.

وبذلك لا يكون العمل الأدبي مجرد نص مكتوب، بل يدخل في شبكة من العلاقات والمؤسسات التي تسهم في تحديد قيمته ومكانته وانتشاره.

وقد طبّق بورديو هذا التصور بصورة واضحة في كتابه قواعد الفن: تكوين الحقل الأدبي وبنيته، حيث درس نشأة الحقل الأدبي الحديث من خلال دراسة الأدب الفرنسي، وخاصة عالم فلوبير.

سؤال مهم في التحليل الأدبي

بدل أن نسأل فقط:

ماذا يقول النص؟

يمكن لمقاربة بورديو أن تضيف سؤالًا آخر:

في أي حقل اجتماعي وثقافي أُنتج هذا النص؟ وما موقع الكاتب والمؤسسات والقراء داخله؟

---

**٢. الرأسمال:**

من المفاهيم الأساسية عند بورديو مفهوم الرأسمال.

ولا يقتصر الرأسمال عنده على المال؛ فالإنسان يمكن أن يمتلك موارد مختلفة تمنحه مكانة أو قوة داخل المجتمع.

ومن أهم أشكال الرأسمال:

**أ. الرأسمال الاقتصادي**

ويتمثل في المال والممتلكات والموارد المادية.

ب. الرأسمال الثقافي

ويتمثل في المعرفة والتعليم والمهارات والقدرة على التعامل مع المنتجات الثقافية.

وقد يظهر الرأسمال الثقافي في:

المستوى التعليمي؛

المعرفة الأدبية والفنية؛

القدرة على فهم الأعمال الثقافية؛

اللغة وطريقة استعمالها؛

المعرفة بالمؤسسات والرموز الثقافية.

**ج. الرأسمال الاجتماعي**

ويتمثل في العلاقات والشبكات الاجتماعية التي يستطيع الفرد الاستفادة منها.

فقد يمتلك شخص ما علاقات واسعة مع الكتاب والنقاد والناشرين والمؤسسات الثقافية، وهذا يمكن أن يساعده في الوصول إلى المجال الأدبي.

**د. الرأسمال الرمزي**

وهو المكانة والاعتراف والسمعة التي يحصل عليها الفرد داخل مجال معين.

فالجائزة الأدبية، والشهرة، والاعتراف النقدي، والمكانة الأكاديمية يمكن أن تتحول إلى رأسمال رمزي.

ومن هنا يمكن أن نسأل عند دراسة كاتب أو عمل أدبي:

ما أنواع الرأسمال التي يمتلكها الكاتب؟ وكيف ساعدته هذه الموارد على اكتساب موقع معين في الحقل الأدبي؟

---

**٣. الهابيتوس:**

الهابيتوس من أكثر مفاهيم بورديو أهمية وصعوبة في الوقت نفسه.

ويقصد به بصورة مبسطة مجموعة من الاستعدادات والميول المكتسبة التي تتكون لدى الفرد نتيجة تربيته وظروفه الاجتماعية والتعليمية والثقافية.

فالإنسان لا يختار دائمًا ذوقه وطريقة تفكيره بصورة فردية خالصة؛ إذ تتأثر هذه الاختيارات بالأسرة والتعليم والطبقة الاجتماعية والبيئة الثقافية والتجارب السابقة.

ومن ثم فإن الهابيتوس يؤثر في:

الذوق؛

طريقة التفكير؛

السلوك؛

الاختيارات الثقافية؛

طريقة استقبال الأعمال الفنية والأدبية.

مثال

قد يرى شخصان الرواية نفسها، ولكن لا يستقبلانها بالطريقة نفسها؛ لأن خلفيتهما التعليمية والاجتماعية والثقافية مختلفة.

وهنا لا يسأل بورديو فقط:

لماذا أحب هذا الشخص الرواية؟

بل يمكن أن نسأل:

ما الظروف الاجتماعية والثقافية التي ساهمت في تكوين ذوقه الأدبي؟

---

٤. التمييز والذوق:

يرتبط مفهوم التمييز ارتباطًا وثيقًا بالذوق والرأسمال الثقافي.

درس بورديو العلاقة بين الموقع الاجتماعي والذوق الثقافي في كتابه التمييز: نقد اجتماعي لحكم الذوق ( ,La Distinction١٩٧٩). وقد اعتمد في هذا العمل على بحوث اجتماعية حول الثقافة والذوق في المجتمع الفرنسي.

يرى بورديو أن الذوق ليس مجرد اختيار فردي بريء، بل يرتبط بالظروف الاجتماعية والثقافية.

فما يسمى:

«الأدب الراقي»

«الفن الراقي»

«الذوق الرفيع»

لا يتحدد دائمًا بمعايير جمالية خالصة، وإنما تتدخل في تحديده مؤسسات وجماعات تمتلك قدرًا أكبر من الرأسمال الثقافي والرمزي.

وبذلك يصبح الذوق وسيلة من وسائل التمييز الاجتماعي.

في دراسة الأدب

يمكن أن نسأل:

من يحدد قيمة العمل الأدبي؟

من يقرر أن رواية معينة أدب رفيع؟

لماذا تحصل أعمال معينة على الاعتراف والجوائز؟

لماذا تُهمّش أعمال أخرى؟

هل يرتبط الذوق الأدبي بالتعليم والطبقة والموقع الاجتماعي؟

وهذه الأسئلة تجعلنا ننتقل من دراسة النص وحده إلى دراسة العلاقات الاجتماعية التي تحيط به.

---

٥. العنف الرمزي:

من المفاهيم المهمة عند بورديو أيضًا العنف الرمزي.

ولا يعني العنف هنا العنف الجسدي، بل يشير إلى أشكال من السيطرة والهيمنة التي تُمارس من خلال:

اللغة؛

التعليم؛

القيم؛

المعايير الاجتماعية؛

الذوق؛

المؤسسات؛

الصور والتصورات السائدة.

والأهم أن هذا النوع من الهيمنة قد يبدو طبيعيًا أو بديهيًا، بحيث لا يُنظر إليه بوصفه علاقة قوة.

فإذا أصبحت قيمة أو قاعدة اجتماعية معينة تبدو وكأنها «طبيعية» ولا تحتاج إلى تفسير، يمكن أن نسأل عن الظروف التي جعلتها تبدو طبيعية.

وهنا تظهر أهمية مفهوم الهابيتوس؛ لأن كثيرًا من القواعد الاجتماعية تصبح جزءًا من طريقة تفكير الفرد وسلوكه دون أن يشعر بأنه يتلقى أمرًا مباشرًا من أحد.

---

٦. الهيمنة الذكورية:

يكتسب مفهوم الهيمنة الذكورية أهمية خاصة في أعمال بورديو، ولذلك يمكن استخدامه أيضًا في المقاربة الاجتماعية والثقافية للنص الأدبي.

خصص بورديو كتابًا كاملًا لهذه القضية بعنوان:

الهيمنة الذكورية

وقد صدر بالفرنسية عن دار Seuil سنة ١٩٩٨.

وفي هذا العمل يدرس بورديو كيف يمكن للعلاقات بين الرجال والنساء أن تُنظَّم من خلال بنى اجتماعية وثقافية تجعل بعض أشكال التفوق الذكوري تبدو طبيعية ومقبولة. ويربط ذلك بمفهوم العنف الرمزي.

الهيمنة الذكورية ليست مجرد تسلط فردي

من المهم عدم اختزال مفهوم بورديو في أن:

الرجل يسيطر على المرأة.

فالمسألة عنده أوسع من العلاقة بين فردين.

إنه يبحث في البنى الاجتماعية والثقافية التي تنتج تصورًا معينًا عن:

الرجل؛

المرأة؛

الذكورة؛

الأنوثة؛

الأدوار الاجتماعية؛

السلطة؛

الأسرة؛

العمل؛

الجسد.

وبذلك يمكن أن تستمر بعض صور الهيمنة حتى من خلال المؤسسات والعادات والتصورات التي تبدو عادية وطبيعية.

---

٧. الهيمنة الذكورية والأدب

هذا المفهوم مهم جدًا في التحليل الأدبي؛ لأن الأدب يمكن أن يكشف لنا الطريقة التي يُبنى بها تصور المجتمع عن الرجل والمرأة.

يمكن أن ندرس مثلًا:

صورة المرأة

هل تظهر المرأة بوصفها:

تابعة؟

زوجة أو أمًا فقط؟

موضوعًا لنظر الرجل؟

شخصية مستقلة؟

صاحبة قرار؟

مقاومة للأدوار التقليدية؟

صورة الرجل

هل يقدم الرجل بوصفه:

صاحب السلطة؟

المعيل؟

صاحب القرار؟

الحامي؟

الشخصية الأكثر حرية؟

أم أن النص يقدم صورة مختلفة عن الذكورة التقليدية؟

توزيع الأدوار

يمكن دراسة توزيع الأدوار بين الرجال والنساء في:

الأسرة؛

الزواج؛

العمل؛

التعليم؛

المجال العام؛

المجال الخاص.

اللغة والوصف

يمكن أيضًا دراسة اللغة التي يستخدمها السارد أو الشخصيات في وصف النساء والرجال:

من يتكلم؟

من يُرى؟

من يملك حق اتخاذ القرار؟

من يصف الآخر؟

ومن يكون موضوعًا للوصف؟

وهذه الأسئلة تجعل مفهوم الهيمنة الذكورية قابلًا للتطبيق على النص الأدبي، بدل أن يبقى مجرد مفهوم اجتماعي عام.

---

٨. بورديو والأدب: من النص إلى شروط إنتاجه

من أهم ما تضيفه مقاربة بورديو أنها توسع مجال التحليل.

فيمكن أن ندرس العمل الأدبي على مستويين:

المستوى الأول: داخل النص

مثل:

الشخصيات؛

العلاقات الاجتماعية؛

السلطة؛

الطبقة؛

الجنس؛

الذوق؛

اللغة؛

القيم.

**المستوى الثاني: خارج النص**

مثل:

موقع الكاتب؛

طبقته الاجتماعية؛

تعليمه؛

المؤسسات الأدبية؛

دور النشر؛

الجوائز؛

النقاد؛

القراء؛

السوق الثقافية.

وهنا يصبح الأدب جزءًا من ممارسة اجتماعية وثقافية وليس مجرد نص منفصل عن المجتمع.

---

٩. ماذا نأخذ من بورديو في هذا المقرر؟

لا نحتاج إلى دراسة كل نظرية بورديو دراسة شاملة. ولأغراض هذا المقرر، يمكن التركيز على ستة مفاهيم رئيسة:

| المفهوم | السؤال الذي يساعدنا في الإجابة عنه |

| ---------- | ---------- |

| الحقل | في أي مجال اجتماعي وثقافي ينتج الأدب؟ |

| الرأسمال الثقافي | ما الموارد الثقافية التي يمتلكها الفرد؟ |

| الرأسمال الرمزي | كيف يحصل الكاتب أو العمل على الاعتراف والمكانة؟ |

| الهابيتوس | كيف تؤثر الخلفية الاجتماعية في الذوق والسلوك؟ |

| التمييز | كيف يرتبط الذوق بالمكانة والاختلاف الاجتماعي؟ |

| الهيمنة الذكورية | كيف تُنتج العلاقات بين الجنسين وتُقدَّم بوصفها طبيعية؟ |

أما العنف الرمزي فيمكن اعتباره مفهومًا رابطًا بين هذه المفاهيم، وخاصة عند دراسة التمييز والهيمنة.

---

**١٠. حدود استخدام نظرية بورديو**

من المهم ألا نحول نظرية بورديو إلى أداة لتفسير كل شيء.

إذا كان البحث يركز أساسًا على:

الهوية الهجينة؛

المهاجر؛

التفاوض بين ثقافتين؛

الفضاء الثالث؛

فإن بورديو قد لا يكون الإطار الأكثر مباشرة، ويمكن أن يكون هومي بهابها أنسب.

أما إذا كان السؤال يتعلق بـ:

الموقع الاجتماعي للكاتب؛

المؤسسات الأدبية؛

الطبقة؛

التعليم؛

الذوق؛

رأس المال الثقافي؛

الاعتراف الأدبي؛

علاقات القوة داخل المجال الثقافي؛

أو الهيمنة الذكورية بوصفها بنية اجتماعية وثقافية؛

فهنا تكون مقاربة بورديو أكثر ملاءمة.

---

**خلاصة الدرس**

يمكن تلخيص مقاربة بورديو في الانتقال من السؤال:

ماذا يقول النص؟

إلى أسئلة أوسع:

من أنتج النص؟

في أي حقل اجتماعي وثقافي أُنتج؟

ما الموارد والمكانة التي يمتلكها الكاتب؟

كيف يتشكل الذوق الأدبي؟

من يملك سلطة تحديد القيمة الأدبية؟

كيف تظهر علاقات الهيمنة داخل النص وخارجه؟

ومن هنا يمكن القول إن أهمية بورديو في دراسة الأدب تكمن في أنه يربط الأدب بالمجتمع والثقافة والمؤسسات والسلطة والذوق، دون اختزال العمل الأدبي في مجرد انعكاس مباشر للواقع الاجتماعي.

---

**أهم المصادر**


Bourdieu, Pierre. La Distinction: Critique sociale du jugement. Paris: Les Éditions de Minuit, ١٩٧٩.

Bourdieu, Pierre. Les Règles de l’art: Genèse et structure du champ littéraire. Paris: Seuil, ١٩٩٢.

Bourdieu, Pierre. La Domination masculine. Paris: Seuil, ١٩٩٨.

Bourdieu, Pierre. The Rules of Art: Genesis and Structure of the Literary Field. Trans. Susan Emanuel. Stanford University Press, ١٩٩٦. وقد خُصص هذا الكتاب لدراسة تشكل الحقل الأدبي الحديث، مع التركيز على فلوبير.

Bourdieu, Pierre. Masculine Domination. Stanford University Press, ٢٠٠١.

Wright, David. “Cultural Capital and the Literary Field.” Cultural Trends, ١٥(٢–٣), ٢٠٠٦, pp. ١٢٣–١٣٩.

# الدرس السادس

## التطبيق

## الدرس السابع

### ستيوارت هول والثقافة والهوية والتمثيل

**تمهيد**

يُعدّ ستيوارت هول (Stuart Hall, ١٩٣٢–٢٠١٤) من أبرز المفكرين في مجال الدراسات الثقافية، وقد أسهم بصورة كبيرة في تطوير دراسة الثقافة والهوية والتمثيل والإعلام.

ولا ينظر هول إلى الثقافة باعتبارها مجموعة من الأعمال الفنية أو الأدبية فقط، بل يراها مجالًا تُنتج فيه المعاني والهويات والتصورات الاجتماعية.

ومن هنا يمكن الاستفادة من أفكاره في دراسة الأدب، وخاصة الأدب المعاصر، لأن النص الأدبي لا يقدّم الواقع كما هو بالضرورة، وإنما يشارك في تمثيل الواقع وإنتاج المعنى حوله.

ومن أهم الأسئلة التي يمكن أن تطرحها مقاربة هول:

كيف يمثل النص الهوية؟

كيف يصوّر الآخر؟

كيف تتشكل صورة المرأة أو الرجل أو المهاجر أو الوطن؟

هل الهوية ثابتة أم متغيرة؟

كيف ترتبط الهوية بالثقافة والتاريخ؟

من يملك القدرة على إنتاج المعنى وتحديد الصورة السائدة؟

كيف يمكن للأدب أن يعيد إنتاج الصور الثقافية السائدة أو يعارضها؟

---

أولًا: ستيوارت هول والدراسات الثقافية

ولد ستيوارت هول في جامايكا سنة ١٩٣٢، ثم انتقل إلى بريطانيا، وأصبح من الشخصيات الأساسية في تطور الدراسات الثقافية البريطانية.

ارتبط اسمه خصوصًا بـ مركز الدراسات الثقافية المعاصرة في جامعة برمنغهام، الذي أصبح أحد أهم مراكز الدراسات الثقافية في النصف الثاني من القرن العشرين.

اهتم هول بدراسة الثقافة في علاقتها بـ:

السلطة؛

الطبقة الاجتماعية؛

الهوية؛

العِرق؛

الإعلام؛

التمثيل؛

الاستعمار وما بعد الاستعمار؛

الهجرة؛

الثقافة الشعبية.

وهذا يجعل أفكاره مناسبة بصورة خاصة لدراسة الأدب العربي المعاصر، حيث تظهر قضايا مثل الهجرة والهوية والمرأة والآخر والمدينة والعولمة والصراع بين القيم التقليدية والحديثة.

---

**ثانيًا: مفهوم الثقافة عند هول**

لا تقتصر الثقافة عند هول على الأدب والفن والموسيقى، بل تشمل الطريقة التي ينتج بها المجتمع المعاني ويفسر بها العالم.

فالثقافة ترتبط بما نستخدمه من:

لغة؛

صور؛

رموز؛

قصص؛

عادات؛

تصورات؛

قيم؛

تمثيلات.

ولهذا لا يكون السؤال:

ما الثقافة الموجودة في النص؟

فقط، وإنما يمكن أن نسأل:

كيف ينتج النص معنى ثقافيًا معينًا؟

و:

ما الصورة التي يقدمها النص عن المجتمع أو الإنسان أو الآخر؟

---

ثالثًا: التمثيل Representation

يُعد مفهوم التمثيل ( (Representationمن أهم مفاهيم ستيوارت هول.

والتمثيل لا يعني مجرد نقل الواقع أو وصفه كما هو.

فعندما يقدم النص الأدبي صورة عن:

المرأة؛

الرجل؛

المهاجر؛

العربي؛

الغربي؛

الفقير؛

الغني؛

المدينة؛

الريف؛

الوطن؛

الآخر؛

فإنه لا يقدم «صورة محايدة» بالضرورة، بل يختار كلمات وأحداثًا وشخصيات وزوايا معينة لإنتاج معنى محدد.

لذلك يرى هول أن التمثيل مرتبط بعملية إنتاج المعنى من خلال اللغة والممارسات الثقافية.

---

مثال

إذا قدمت رواية المهاجر بوصفه:

شخصًا ممزق الهوية؛

أو شخصًا ناجحًا في المجتمع الجديد؛

أو شخصًا مرفوضًا من المجتمع؛

أو شخصًا يحافظ على ثقافته الأصلية؛

فإن الرواية لا تقدم المهاجر بوصفه حقيقة واحدة ثابتة، وإنما تنتج تمثيلًا معينًا للمهاجر.

وهنا يمكن أن نسأل:

كيف بُنيت هذه الصورة؟

و:

ما العناصر الثقافية والاجتماعية التي ساهمت في إنتاجها؟

--

**رابعًا: اللغة وإنتاج المعنى**

يرتبط التمثيل عند هول باللغة ارتباطًا وثيقًا.

فاللغة ليست مجرد وسيلة لنقل معنى موجود مسبقًا، بل تشارك في إنتاج المعنى.

فالكلمة أو الصورة أو الوصف قد تحمل دلالات ثقافية تتجاوز معناها المباشر.

ولهذا يمكن في تحليل النص الأدبي دراسة:

الكلمات المستخدمة لوصف الشخصيات؛

الصفات المتكررة؛

الصور والاستعارات؛

طريقة وصف المكان؛

طريقة تقديم الآخر؛

ما يقوله السارد؛

وما لا يقوله.

وهنا يصبح تحليل اللغة وسيلة لفهم التصورات الثقافية التي ينتجها النص.

---

**خامسًا: الهوية عند ستيوارت هول**

من أهم إسهامات هول مفهومه للهوية.

لا يرى هول الهوية على أنها شيء ثابت يولد الإنسان به ويبقى كما هو طوال حياته.

فالهوية تتشكل من خلال:

التاريخ؛

الثقافة؛

اللغة؛

التجربة؛

العلاقات الاجتماعية؛

الذاكرة؛

الاختلاف؛

التفاعل مع الآخرين.

ولهذا يمكن أن تتغير هوية الإنسان نتيجة تغير الظروف الاجتماعية والثقافية.

---

الهوية ليست جوهرًا ثابتًا

يمكن أن يكون الإنسان في الوقت نفسه:

ابن مجتمع معين؛

فردًا في أسرة معينة؛

متحدثًا بلغة معينة؛

مهاجرًا؛

طالبًا أو موظفًا؛

منتميًا إلى ثقافة معينة؛

ومتأثرًا بثقافة أخرى.

وهذه الانتماءات لا تكون دائمًا منسجمة.

ومن هنا تظهر أهمية مفهوم الهوية عند دراسة الأدب المعاصر، وخاصة أدب:

الهجرة؛

المنفى؛

الاغتراب؛

الشتات؛

التعدد الثقافي؛

الصراع بين الأجيال؛

العلاقة بين الشرق والغرب.

---

سادسًا: الهوية والاختلاف

يرتبط بناء الهوية عند هول بفكرة الاختلاف.

فالإنسان لا يحدد هويته فقط من خلال قوله:

من أنا؟

بل أيضًا من خلال التمييز بين:

أنا والآخر.

ومن هنا يمكن أن يظهر في النص ثنائي مثل:

نحن / هم

الشرق / الغرب

العربي / الغربي

الرجل / المرأة

المواطن / الأجنبي

المهاجر / المجتمع المضيف

القديم / الحديث

لكن هذه الثنائيات ليست دائمًا ثابتة؛ فقد يتغير موقع الشخصية بينها.

وهذا مهم في الأدب الذي يتناول الهجرة والهوية الثقافية.

---

سابعًا: الهوية الثقافية

تحدث هول بصورة خاصة عن الهوية الثقافية، وربطها بالتاريخ والثقافة والذاكرة.

وفي كتاباته حول الهوية الثقافية والشتات، رفض النظر إلى الهوية الثقافية باعتبارها جوهرًا واحدًا ثابتًا.

فالهوية يمكن أن تكون:

عملية تشكّل مستمرة.

وهذا يعني أن الشخص قد يعيد تعريف نفسه نتيجة:

الهجرة؛

الاستعمار؛

المنفى؛

التغير الاجتماعي؛

الاحتكاك بثقافة أخرى؛

تغير المكان؛

تغير اللغة أو طريقة استخدامها.

ومن هنا يصبح الأدب مجالًا مهمًا لدراسة تحولات الهوية.

---

ثامنًا: التمثيل والسلطة

لا يفصل هول التمثيل عن السلطة.

فالسؤال ليس فقط:

كيف تمثل الرواية المرأة أو المهاجر أو الآخر؟

بل يمكن أن نضيف:

لماذا ظهرت هذه الصورة بهذه الطريقة؟

و:

ما التصورات الثقافية التي تجعل هذه الصورة ممكنة؟

و:

هل يعيد النص إنتاج الصورة السائدة أم يحاول تغييرها؟

فالتمثيل يمكن أن يسهم في تثبيت صورة معينة، ولكنه يمكن أيضًا أن يكون وسيلة لمقاومة هذه الصورة وإعادة صياغتها.

---

**تاسعًا: الثقافة والهيمنة**

تأثر هول بأفكار أنطونيو غرامشي، وخاصة مفهوم الهيمنة (Hegemony).

ولا تعني الهيمنة السيطرة بالقوة فقط، بل يمكن أن تصبح بعض الأفكار والقيم السائدة مقبولة وكأنها طبيعية أو بديهية.

في المجال الثقافي يمكن أن تظهر الهيمنة من خلال:

القيم الاجتماعية؛

الصور النمطية؛

وسائل الإعلام؛

اللغة؛

التعليم؛

الخطاب الثقافي.

ولهذا يمكن دراسة الأدب من أجل معرفة:

هل يكرر النص التصورات الثقافية السائدة؟

أم:

يعارضها ويقدم تمثيلًا مختلفًا؟

---

عاشرًا: الصورة النمطية Stereotype

يولي هول أهمية كبيرة لمفهوم الصورة النمطية (.(Stereotyping

والصورة النمطية هي اختزال جماعة أو فئة من الناس في مجموعة محدودة من الصفات التي تُكرر حتى تبدو وكأنها حقيقة ثابتة.

مثل أن تقدم جماعة معينة دائمًا بوصفها:

عنيفة؛

متخلفة؛

جاهلة؛

غريبة؛

ضعيفة؛

أو، بالعكس، متفوقة بصورة مطلقة.

المشكلة هنا ليست في وجود صفة معينة في شخصية ما، وإنما في اختزال جماعة كاملة في صورة ثابتة ومتكررة.

وهذا المفهوم مهم جدًا عند دراسة صورة:

الآخر؛

المرأة؛

المهاجر؛

العربي؛

الغربي؛

الأقليات.

---

الحادي عشر: التمثيل والآخر

يمكن لمقاربة هول أن تساعدنا في دراسة صورة «الآخر» في الأدب.

فإذا قدمت رواية مجتمعًا أو ثقافة أخرى، يمكن أن نسأل:

كيف وصفت هذا المجتمع؟

ما الصفات التي تكررت؟

هل قدمته بوصفه مختلفًا بصورة مطلقة؟

هل توجد صورة نمطية؟

هل هناك تعدد في الشخصيات والآراء؟

هل يسمح النص للآخر بأن يتحدث عن نفسه؟

أم أن صورته تُبنى من خلال رؤية السارد أو الشخصية الرئيسية؟

وهنا يمكن أن تتقاطع مقاربة هول مع دراسات إدوارد سعيد، لكنهما ليسا نظرية واحدة.

هول يهتم بصورة عامة بالتمثيل والثقافة والهوية والسلطة.

أما سعيد فسوف ندرسه لاحقًا بصورة أكثر تحديدًا في سياق الاستشراق وتمثيل الشرق والآخر والعلاقة بين المعرفة والسلطة.

---

**الثاني عشر: هول والجندر**

يمكن استخدام مفاهيم هول أيضًا في دراسة تمثيل المرأة والرجل.

لكن السؤال هنا يختلف عن سؤال بورديو.

مع بورديو يمكن أن نسأل:

كيف تعمل البنية الاجتماعية والثقافية على إنتاج الهيمنة الذكورية؟

أما مع هول فيمكن أن نسأل:

كيف يمثل النص المرأة والرجل؟ وما الصور والمعاني التي ينتجها حول الجنسين؟

مثلًا:

كيف تُوصف المرأة؟

ما الأدوار التي تمنح لها؟

هل تظهر بوصفها مستقلة أم تابعة؟

كيف يقدم النص صورة الرجل؟

هل يعيد النص إنتاج الصورة التقليدية للمرأة؟

أم يقدم تمثيلًا جديدًا لها؟

وهكذا يمكن استخدام هول في تحليل التمثيل الثقافي للجندر.

---

الثالث عشر: أهمية نظرية هول في دراسة الأدب العربي المعاصر

تبدو أفكار هول مناسبة بصورة خاصة للأدب العربي المعاصر بسبب كثرة الموضوعات المرتبطة بالهوية والتمثيل، مثل:

الهجرة؛

المنفى؛

الاغتراب؛

الهوية الثقافية؛

المرأة؛

الجندر؛

المدينة؛

العولمة؛

العلاقة بين الشرق والغرب؛

الأقليات؛

الذاكرة؛

الاستعمار وآثاره؛

الصراع بين الأجيال.

فالرواية المعاصرة لا تكتفي غالبًا بعرض الأحداث، وإنما تقدم تصورات عن المجتمع والإنسان والهوية والآخر.

وهنا تساعدنا مقاربة هول على الانتقال من:

دراسة الشخصية

إلى:

دراسة الطريقة التي يمثل بها النص هذه الشخصية

ومن:

دراسة الهوية بوصفها صفة ثابتة

إلى:

دراسة الهوية بوصفها عملية تشكل وإعادة تشكيل

---

الرابع عشر: الفرق بين بورديو وهول

من المفيد للطالب أن يميز بين النظريتين:

| بورديو | ستيوارت هول |

| ---------- | ---------- |

| الحقل | الثقافة والتمثيل |

| الرأسمال | الهوية |

| الهابيتوس | إنتاج المعنى |

| الذوق والتمييز | الصورة النمطية |

| المؤسسات الثقافية | الاختلاف |

| الموقع الاجتماعي | السلطة والتمثيل |

| الهيمنة الاجتماعية | الهوية الثقافية |

وبعبارة مختصرة:

بورديو يسأل:

في أي بنية اجتماعية وثقافية ينتج الأدب ويكتسب قيمته ومكانته؟

هول يسأل:

كيف ينتج الأدب المعاني ويمثل الهوية والثقافة والآخر؟

---

الخامس عشر: أهم المفاهيم التي نحتاج إليها في هذا المقرر

لا نحتاج إلى دراسة جميع أعمال ستيوارت هول، ولذلك يمكن التركيز على المفاهيم الآتية:

| المفهوم | السؤال في التحليل الأدبي |

| ---------- | ---------- |

| الثقافة | كيف ينتج النص المعنى الثقافي؟ |

| التمثيل | كيف يصور النص الأشخاص والثقافات؟ |

| الهوية | كيف تتشكل هوية الشخصية؟ |

| الهوية الثقافية | كيف ترتبط الهوية بالتاريخ والثقافة؟ |

| الاختلاف | كيف يبني النص العلاقة بين «نحن» و«الآخر»؟ |

| الصورة النمطية | هل يختزل النص جماعة معينة في صورة ثابتة؟ |

| السلطة | من يملك القدرة على إنتاج المعنى؟ |

| الهيمنة | هل يعيد النص إنتاج التصورات السائدة أم يعارضها؟ |

---

خلاصة الدرس

يمكن تلخيص مقاربة ستيوارت هول في ثلاثة أسئلة أساسية:

١. ماذا يمثل النص؟

المرأة، الرجل، المهاجر، الوطن، الآخر، المدينة، الثقافة...

٢. كيف يمثلها؟

من خلال اللغة، والشخصيات، والسرد، والصور، والرموز، والاختلافات التي يبنيها النص.

٣. ما المعنى الثقافي الذي ينتجه هذا التمثيل؟

هل يعيد إنتاج صورة ثقافية سائدة، أم يقدم صورة مختلفة عنها؟

ومن هنا تصبح الثقافة في الأدب ليست مجرد موضوع يظهر داخل النص، بل عملية لإنتاج المعنى والهوية والاختلاف.

---

أهم المصادر


Hall, Stuart. “Cultural Identity and Diaspora.” In Identity: Community, Culture, Difference, edited by Jonathan Rutherford, Lawrence & Wishart, ١٩٩٠, pp. ٢٢٢–٢٣٧.

Hall, Stuart. “The Work of Representation.” In Representation: Cultural Representations and Signifying Practices, edited by Stuart Hall, Sage, ١٩٩٧, pp. ١٣–٧٤.

Hall, Stuart. “Who Needs ‘Identity’?” In Questions of Cultural Identity, edited by Stuart Hall and Paul du Gay, Sage, ١٩٩٦, pp. ١–١٧.

Hall, Stuart, ed. Representation: Cultural Representations and Signifying Practices. Sage, ١٩٩٧.

: A Theoretical History. Duke University ١٩٨٣Hall, Stuart. Cultural Studies
.٢٠١٦Press,

---

# الدرس الثامن

## التطبيق

## الدرس التاسع

### هومي بهابها (بابا) والهجنة والفضاء الثالث

**تمهيد**

يُعدّ هومي ك. بهابها ( Homi K. Bhabha, ١٩٤٩– ) من أبرز المفكرين في دراسات ما بعد الاستعمار، وقد ارتبط اسمه بصورة خاصة بمفاهيم الهجنة، والفضاء الثالث، والتفاوض الثقافي، والازدواجية.

اهتم بهابها بالعلاقة بين الثقافات، ولا سيما في سياق الاستعمار وما بعد الاستعمار والهجرة والشتات. وانطلق من نقد التصور الذي ينظر إلى الثقافات بوصفها كيانات مغلقة وثابتة، بحيث تكون هناك ثقافة أصلية خالصة في مقابل ثقافة أخرى مختلفة عنها بصورة كاملة.

ويرى بهابها أن التفاعل بين الثقافات يؤدي إلى إنتاج مساحات جديدة للمعنى والهوية، وأن الإنسان الذي يعيش بين ثقافتين قد لا ينتمي بصورة كاملة إلى واحدة منهما.

وتكتسب هذه الأفكار أهمية كبيرة في دراسة الأدب العربي المعاصر، وخاصة الروايات التي تتناول:

الهجرة؛

المنفى؛

الشتات؛

الاستعمار؛

العلاقة بين الشرق والغرب؛

التعدد الثقافي؛

الهوية المركبة؛

الصراع بين الثقافة الأصلية والثقافة الجديدة.

---

أولًا: السياق الفكري عند هومي بهابها

ظهر اهتمام بهابها بهذه القضايا في سياق الدراسات ما بعد الاستعمارية، التي اهتمت بآثار الاستعمار في الثقافة واللغة والهوية وتمثيل الآخر.

لكن بهابها لا يركز فقط على علاقة:

المستعمِر / المستعمَر

بصورة مباشرة، بل يهتم أيضًا بما يحدث داخل المنطقة الواقعة بين الثقافات.

فالعلاقة بين الثقافتين ليست دائمًا علاقة رفض أو قبول كامل، وإنما يمكن أن تنتج عنها:

إعادة تشكيل للهوية؛

أخذ وعطاء ثقافي؛

تقليد؛

تفاوض؛

مقاومة؛

تبني بعض عناصر الثقافة الأخرى؛

إعادة تفسيرها.

ومن هنا تأتي أهمية مفهوم الفضاء الثالث.

---

**ثانيًا: الهجنة الثقافية** Cultural Hybridity

تُعد الهجنة ( (Hybridityمن أشهر مفاهيم بهابها.

والهجنة تعني، بصورة مبسطة، نشوء أشكال جديدة من الهوية والثقافة نتيجة التفاعل بين ثقافتين أو أكثر.

ولا تعني الهجنة مجرد جمع عنصرين ثقافيين بطريقة ميكانيكية، بل تشير إلى عملية إعادة تشكيل تنتج عنها أحيانًا هوية أو ممارسة ثقافية جديدة.

مثال

شخص يعيش في بلد عربي ثم ينتقل إلى بلد أوروبي سنوات طويلة.

قد يحتفظ:

بلغته؛

بعاداته؛

بذكرياته؛

وفي الوقت نفسه يتبنى بعض:

طرق الحياة؛

القيم؛

اللغة؛

العادات؛

في المجتمع الجديد.

لكن النتيجة ليست بالضرورة أن يصبح «عربيًا خالصًا» أو «أوروبيًا خالصًا».

قد تظهر هوية مركبة جديدة.

وهذه هي إحدى الحالات التي يمكن أن تساعدنا فيها فكرة الهجنة.

---

**ثالثًا: الهجنة ليست مجرد مزج ثقافي**

من المهم ألا نفهم الهجنة على أنها:

الثقافة الأولى + الثقافة الثانية = ثقافة هجينة.

فالمفهوم عند بهابها أعمق من ذلك.

الهجنة تشير إلى أن التفاعل بين الثقافات يمكن أن يغير الطريقة التي يفهم بها الإنسان نفسه والآخر والثقافتين معًا.

فالمهاجر، مثلًا، لا يبقى بالضرورة حاملًا لثقافته الأصلية كما هي، ولا يتحول بالضرورة إلى نسخة كاملة من المجتمع الجديد.

بل قد يعيد تفسير الثقافتين من موقع جديد.

ولهذا ترتبط الهجنة عند بهابها بمفهوم الهوية المتحركة وغير المكتملة.

---

**رابعًا: الفضاء الثالث** The Third Space

يُعد الفضاء الثالث ( (Third Spaceمن أهم المفاهيم المرتبطة ببهابها.

والمقصود به، بصورة مبسطة، المجال الثقافي الذي يتشكل بين الثقافات، حيث تحدث عملية التفاعل وإعادة إنتاج المعنى.

ولا يعني الفضاء الثالث بالضرورة مكانًا جغرافيًا حقيقيًا.

فقد يكون:

مكانًا اجتماعيًا؛

فضاءً ثقافيًا؛

حالة من التفاعل؛

موقعًا تتفاوض فيه الهويات والمعاني.

فالمهاجر الذي يعيش بين ثقافتين يمكن أن يمثل نوعًا من هذا الفضاء؛ لأنه لا يتعامل مع الثقافة الأولى والثانية بوصفهما عالمين منفصلين تمامًا.

---

مثال أدبي

إذا كانت شخصية روائية:

ولدت في بلد عربي؛

عاشت سنوات في فرنسا؛

تتحدث العربية والفرنسية؛

تحافظ على بعض العادات العربية؛

وتتبع في الوقت نفسه بعض أنماط الحياة الفرنسية؛

فلا ينبغي أن ندرسها فقط من خلال سؤال:

هل أصبحت عربية أم فرنسية؟

بل يمكن أن نسأل:

ما الهوية الجديدة التي تتشكل في المساحة الواقعة بين الثقافتين؟

وهنا يصبح مفهوم الفضاء الثالث أداة مفيدة للتحليل.

---

**خامسًا: التفاوض الثقافي** Cultural Negotiation

يرتبط الفضاء الثالث بمفهوم التفاوض الثقافي.

فعندما يلتقي الإنسان بثقافة أخرى، لا يكون موقفه بالضرورة:

قبولًا كاملًا؛

أو رفضًا كاملًا.

بل يمكن أن يحدث نوع من التفاوض.

فالشخص قد:

يقبل بعض القيم؛

يرفض بعضها؛

يعدّل بعضها؛

يعيد تفسير بعضها.

وهكذا تصبح الهوية عملية مستمرة وليست موقفًا ثابتًا.

مثال

قد ترفض شخصية مهاجرة بعض العادات الموجودة في مجتمعها الأصلي، لكنها تتمسك بعادات أخرى.

وفي الوقت نفسه قد ترفض بعض قيم المجتمع الجديد، بينما تقبل قيمًا أخرى.

هذا الموقف المركب يمكن دراسته من خلال التفاوض الثقافي.

---

**سادسًا: الازدواجية Ambivalence**

من المفاهيم المهمة عند بهابها أيضًا الازدواجية (.Ambivalence)

ويقصد بها وجود مشاعر أو مواقف متناقضة تجاه الثقافة الأخرى أو تجاه العلاقة بين الثقافتين.

فالشخص قد:

يحب الثقافة الجديدة ويشعر بالانتماء إليها؛

لكنه يشتاق إلى ثقافته الأصلية.

وقد:

ينتقد المجتمع الذي جاء منه؛

لكنه يشعر بالحنين إليه.

وقد:

يرغب في الاندماج في المجتمع الجديد؛

لكنه لا يريد فقدان هويته الأصلية.

إذن لا يكون الموقف دائمًا:

قبول / رفض

بل يمكن أن يكون:

قبولًا ورفضًا في الوقت نفسه.

وهذه الازدواجية مهمة جدًا في تحليل الشخصيات المهاجرة والمنفية.

---

**سابعًا: المحاكاة الملتبسة** Mimicry

من المفاهيم المعروفة عند بهابها أيضًا المحاكاة (Mimicry).

ويقصد بها، في سياق الاستعمار، محاولة المستعمَر تقليد بعض أنماط المستعمِر في:

اللغة؛

السلوك؛

التعليم؛

اللباس؛

المؤسسات؛

الثقافة.

لكن هذه المحاكاة لا تنتج نسخة مطابقة تمامًا من المستعمِر.

ولهذا يستخدم بهابها تعبير: Almost the same, but not quite

أي: «شبيه تقريبًا، ولكن ليس تمامًا».

وهذه النقطة مهمة؛ لأن المحاكاة قد تحمل في داخلها اختلافًا عن الأصل.

---

**المحاكاة والمقاومة**

المحاكاة ليست دائمًا مجرد قبول للثقافة المهيمنة.

فالشخص الذي يقلد الثقافة المهيمنة قد يستخدم عناصرها بطريقة مختلفة أو يعيد توظيفها.

ولهذا يمكن أن تكون المحاكاة ذات طبيعة مزدوجة:

تبدو كأنها قبول؛

لكنها قد تحمل في داخلها اختلافًا أو مقاومة.

ومن هنا يرتبط مفهوم المحاكاة بمفهوم الازدواجية.

---

**ثامنًا: الاستعمار والهوية**

يهتم بهابها بالطريقة التي يؤثر بها الاستعمار في تشكيل الهوية.

فالاستعمار لا يفرض سيطرته السياسية والاقتصادية فقط، بل يؤثر أيضًا في:

اللغة؛

التعليم؛

الثقافة؛

صورة الذات؛

صورة الآخر.

وقد يدفع المستعمَر إلى النظر إلى نفسه من خلال المعايير التي فرضها المستعمِر.

لكن العلاقة لا تكون أحادية الاتجاه دائمًا؛ إذ يستطيع المستعمَر إعادة استخدام عناصر الثقافة المهيمنة وتغيير معناها.

ومن هنا تظهر مفاهيم:

المحاكاة → الازدواجية → التفاوض → الهجنة.

---

**تاسعًا: الهجنة والهوية**

تختلف رؤية بهابها للهوية عن التصور الذي يجعل الهوية ثابتة ومغلقة.

فالهوية في سياق التفاعل الثقافي يمكن أن تكون:

متحركة؛

مركبة؛

غير مكتملة؛

قابلة لإعادة التشكيل.

ولهذا فإن سؤال:

«ما الهوية الحقيقية للشخصية؟»

قد لا يكون السؤال الأفضل في بعض النصوص.

وقد يكون من الأفضل أن نسأل:

كيف تتشكل هوية الشخصية؟

و: كيف تتغير نتيجة الاحتكاك بثقافة أخرى؟

و: ما العناصر التي تقبلها الشخصية وما العناصر التي ترفضها؟

---

**عاشرًا: المكان والفضاء الثالث**

يمكن أن يظهر الفضاء الثالث في الأدب من خلال أماكن متعددة، مثل:

المطار؛

الحدود؛

الجامعة؛

المدينة متعددة الثقافات؛

الحي الذي يعيش فيه المهاجرون؛

البيت الذي يجمع أفرادًا من خلفيات ثقافية مختلفة.

لكن يجب الانتباه إلى أن المكان الجغرافي ليس بالضرورة فضاءً ثالثًا.

فالفضاء الثالث عند بهابها مفهوم ثقافي ونظري، وليس مجرد مكان يقع بين بلدين.

فإذا ظهرت في الرواية شخصية في مطار مثلًا، فهذا لا يكفي وحده للقول إن «المطار يمثل الفضاء الثالث».

يجب أن يظهر في النص تفاعل ثقافي وإعادة تشكيل للهوية أو للمعنى.

---

**الحادي عشر: الهجنة في اللغة**

يمكن أن تظهر الهجنة أيضًا في اللغة.

مثل:

استعمال أكثر من لغة؛

إدخال كلمات أجنبية في اللغة العربية؛

المزج بين العربية والفرنسية أو الإنجليزية؛

استعمال تعبيرات تنتمي إلى ثقافتين؛

تغير طريقة الكلام نتيجة الهجرة.

لكن وجود كلمات أجنبية في النص لا يعني وحده وجود هجنة ثقافية.

يجب أن يكون هناك ارتباط بين الظاهرة اللغوية وبين التفاعل الثقافي أو تشكل الهوية.

---

**الثاني عشر: بهابها والأدب العربي المعاصر**

تبدو مفاهيم بهابها مفيدة بصورة خاصة في دراسة الأدب العربي الذي يتناول:

المهاجرين العرب في أوروبا وأمريكا؛

المنفى؛

الشتات؛

أبناء الجيل الثاني من المهاجرين؛

العلاقة بين الشرق والغرب؛

الاستعمار وآثاره؛

التعدد الثقافي؛

الهوية المركبة؛

الصراع بين الأجيال؛

اللغة والهوية.

ويمكن استخدام هذه المقاربة في دراسة الرواية التي يكون فيها البطل أو إحدى الشخصيات عالقًا بين ثقافتين أو أكثر.

---

**الثالث عشر: الفرق بين هومي بهابها وستيوارت هول**

من الضروري التمييز بين النظريتين.

ستيوارت هول

يركز بصورة خاصة على:

التمثيل والهوية والثقافة وإنتاج المعنى.

ومن الأسئلة المناسبة له:

كيف تمثل الرواية المهاجر؟

كيف تمثل المرأة؟

كيف تبني صورة الآخر؟

كيف تتشكل الهوية الثقافية؟

هومي بهابها

يركز بصورة أكبر على:

ما يحدث عندما تتفاعل الثقافات وتتقاطع.

ومن الأسئلة المناسبة له:

كيف تتشكل هوية الشخصية بين ثقافتين؟

هل ظهرت هوية هجينة؟

هل توجد عملية تفاوض ثقافي؟

هل تعيش الشخصية حالة ازدواجية؟

هل يوجد فضاء ثالث؟

وبعبارة مختصرة:

هول: كيف تُبنى الهوية وتمثَّل؟

بهابها: ماذا يحدث للهوية عندما تتفاعل الثقافات؟

---

الرابع عشر: المفاهيم التي نحتاج إليها في هذا المقرر

لا نحتاج إلى دراسة جميع أفكار بهابها، ولذلك يمكن التركيز على خمسة مفاهيم رئيسة:

| المفهوم | السؤال في التحليل الأدبي |
| --- | --- |
| الهجنة | هل نتجت هوية أو ممارسة ثقافية مركبة؟ |
| الفضاء الثالث | أين تتشكل المعاني والهويات بين الثقافات؟ |

| التفاوض الثقافي | كيف تتعامل الشخصية مع عناصر الثقافتين؟ |

| الازدواجية | هل تحمل الشخصية مواقف متناقضة تجاه الثقافتين؟ |

| المحاكاة | هل تقلد الشخصية الثقافة المهيمنة؟ وهل التقليد مطابق أم مختلف؟ |

---

**الخامس عشر: حدود استخدام نظرية بهابها**

من المهم عدم استخدام مفهوم الهجنة مع كل نص يتحدث عن ثقافتين.

فوجود:

مهاجر؛

سفر؛

بلد أجنبي؛

كلمات أجنبية؛

زواج بين شخصين من ثقافتين؛

لا يكفي وحده لإثبات وجود الهجنة.

ينبغي أن يكشف النص عن تفاعل ثقافي يؤدي إلى تغير في الهوية أو المعنى أو الممارسة الثقافية.

وكذلك لا ينبغي اعتبار كل شخصية مهاجرة شخصية «هجينة» بصورة تلقائية.

فالتحليل يجب أن ينطلق من النص ويبحث عن الأدلة التي تظهر:

التفاعل → التفاوض → التغير → إعادة تشكيل الهوية.

---

**خلاصة الدرس**

يمكن تلخيص مقاربة هومي بهابها في السؤال الآتي:

ماذا يحدث للهوية عندما تلتقي الثقافات؟

ولا تكون الإجابة بالضرورة:

التخلي عن الثقافة الأولى وتبني الثانية.

بل يمكن أن تحدث عملية أكثر تعقيدًا:

التفاعل الثقافي → التفاوض → الازدواجية → إعادة تشكيل الهوية → الهجنة

ومن هنا لا يرى بهابها الهوية بوصفها شيئًا ثابتًا ومغلقًا، بل بوصفها عملية تتشكل باستمرار في فضاءات التفاعل الثقافي.

---

أهم المصادر


Bhabha, Homi K. The Location of Culture. Routledge, ١٩٩٤.

Bhabha, Homi K. “Culture’s In-Between.” In Questions of Cultural Identity, edited by Stuart Hall and Paul du Gay, Sage, ١٩٩٦, pp. ٥٣–٦٠.

Bhabha, Homi K. “The Commitment to Theory.” In The Location of Culture, Routledge, ١٩٩٤.

Bhabha, Homi K. “Of Mimicry and Man: The Ambivalence of Colonial Discourse.” In The Location of Culture, Routledge, ١٩٩٤.

Bhabha, Homi K. “Signs Taken for Wonders.” In The Location of Culture, Routledge, ١٩٩٤.


---

# الدرس العاشر

## التطبيق

## الدرس الحادي عشر

### إدوارد سعيد والاستشراق وتمثيل الآخر

تمهيد

يُعدّ إدوارد و. سعيد (Edward W. Said, ١٩٣٥–٢٠٠٣) من أبرز المفكرين في الدراسات الأدبية والثقافية وما بعد الاستعمارية. وُلد في القدس ونشأ في القدس والقاهرة، ودرّس الأدب المقارن في جامعة كولومبيا. وقد ارتبط اسمه بصورة خاصة بكتابه الاستشراق (Orientalism) الذي صدر أول مرة سنة ١٩٧٨، ثم بكتابه الثقافة والإمبريالية (Culture and Imperialism) الذي صدر سنة ١٩٩٣.

اهتم سعيد بالعلاقة بين:

الثقافة؛

الأدب؛

المعرفة؛

السلطة؛

الاستعمار؛

تمثيل الآخر.

ومن أهم الأسئلة التي يمكن أن تطرحها مقاربته:

كيف يمثل الأدب والثقافة «الآخر»؟

من يملك حق وصف الآخر وتعريفه؟

هل تمثيل الآخر محايد؟

ما علاقة المعرفة بالسلطة؟

كيف ساهمت بعض الخطابات الثقافية في بناء صورة معينة عن الشرق؟

كيف يمكن للأدب أن يرتبط بالسياق الاستعماري والإمبريالي؟

هل يستطيع النص أن يقاوم الصور السائدة عن الآخر؟

---

**أولًا: ما المقصود بالاستشراق؟** Orientalism

الاستشراق من أشهر مفاهيم إدوارد سعيد.

لكن من المهم أن نفهم أن سعيد لا يقصد بالاستشراق مجرد دراسة الشرق أو دراسة اللغة العربية والإسلام والحضارات الشرقية.

فالمقصود عنده أوسع من ذلك.

الاستشراق هو منظومة من:

التصورات؛

الصور؛

الخطابات؛

الدراسات؛

الأدبيات؛

التمثيلات؛

التي ساهمت تاريخيًا في بناء صورة معينة عن «الشرق» في الفكر والثقافة الغربية.

ويرى سعيد أن هذه الصورة لم تكن منفصلة عن علاقات القوة التاريخية بين الغرب والمناطق التي خضعت للاستعمار أو للنفوذ الأوروبي.

ولهذا يدرس الاستشراق بوصفه علاقة بين:

المعرفة + التمثيل + السلطة

وقد صدر كتاب سعيد Orientalismسنة ١٩٧٨، وأصبح من الأعمال الأساسية في الدراسات ما بعد الاستعمارية.

---

**ثانيًا: الشرق والغرب بوصفهما بناءً ثقافيًا**

من الأفكار الأساسية عند سعيد أن «الشرق» ليس مجرد حقيقة جغرافية.

فيمكن أن توجد منطقة جغرافية تسمى الشرق، لكن الصورة الثقافية التي تُبنى عنها شيء آخر.

فقد يتم تصوير الشرق في بعض الخطابات بوصفه:

غريبًا؛

غير عقلاني؛

جامدًا؛

عاطفيًا؛

بدائيًا؛

شهوانيًا؛

مستبدًا؛

غير قادر على التطور.

وفي المقابل قد يظهر الغرب بوصفه:

عقلانيًا؛

متقدمًا؛

منظمًا؛

علميًا؛

حديثًا.

هنا لا تكون المشكلة في وجود اختلاف بين الثقافتين، وإنما في تحويل الاختلاف إلى ثنائية ثابتة تجعل طرفًا يبدو متفوقًا والطرف الآخر أدنى منه.

---

**ثالثًا: نحن والآخر**

من أهم المفاهيم التي يمكن استخدامها في مقاربة سعيد مفهوم:

الذات / الآخر

فالصورة التي يقدمها الإنسان عن نفسه ترتبط أحيانًا بالطريقة التي يقدم بها الآخرين.

فعندما يُقال:

نحن عقلانيون وهم عاطفيون.

أو:

نحن متحضرون وهم متخلفون.

فإن هذه المقارنة لا تصف الآخر فقط، بل تبني أيضًا صورة عن الذات.

ولهذا يمكن أن ندرس في النص الأدبي:

من يمثل «نحن»؟

من يمثل «هم»؟

كيف يوصف الآخر؟

ما الصفات التي تتكرر؟

هل يقدم الآخر بوصفه مختلفًا بصورة مطلقة؟

هل يُسمح له بالكلام عن نفسه؟

---

**رابعًا: التمثيل Representation**

يمثل التمثيل محورًا مهمًا في مشروع سعيد.

فحين يكتب كاتب غربي عن الشرق، فإنه لا ينقل الشرق بالضرورة كما هو، وإنما يقدم تمثيلًا للشرق من خلال لغته وثقافته وتجربته وموقعه التاريخي.

ولهذا ينبغي التمييز بين:

الشرق بوصفه واقعًا

و: صورة الشرق في النص

فقد تكون هناك مسافة بين الاثنين.

مثال

إذا قدمت رواية أوروبية مدينة عربية بوصفها:

غامضة؛

فوضوية؛

شهوانية؛

خطرة؛

غير عقلانية؛

فلا يكفي أن نقول:

«هذه صورة للمدينة العربية.»

بل يمكن أن نسأل:

كيف بُنيت هذه الصورة؟

و: هل تعتمد على صورة نمطية متكررة عن الشرق؟

و: هل توجد شخصيات عربية تقدم رؤية مختلفة عن نفسها؟

وهنا تظهر فائدة مفهوم التمثيل.

---

**خامسًا: المعرفة والسلطة**

من أهم أفكار سعيد أن المعرفة ليست دائمًا منفصلة عن السلطة.

فالسؤال ليس فقط:

ماذا نعرف عن الشرق؟

بل يمكن أن نسأل:

من ينتج هذه المعرفة؟

و: من يملك حق تعريف الشرق ووصفه؟

و: في أي سياق تاريخي أُنتجت هذه المعرفة؟

فالخطابات العلمية والأدبية والثقافية يمكن أن تشارك في إنتاج صورة معينة عن جماعة أو شعب أو ثقافة.

ولهذا يهتم سعيد بالعلاقة بين: المعرفة والسلطة

وهي فكرة تتقاطع أيضًا مع أعمال ميشيل فوكو، الذي تأثر به سعيد بصورة واضحة.

---

**سادسًا: الاستشراق ليس مجرد كذب**

من المهم أن نفهم هذه النقطة بدقة.

لا يعني سعيد أن كل كاتب غربي كتب عن الشرق كان يكذب عمدًا.

المسألة أكثر تعقيدًا.

فقد يكتب الكاتب عن الشرق اعتمادًا على:

تصورات ثقافية سابقة؛

كتب سابقة؛

صور نمطية؛

تقاليد أدبية؛

خطاب ثقافي سائد.

وبالتالي قد يعيد إنتاج صورة معينة عن الشرق دون أن يكون هدفه الشخصي المباشر هو ممارسة السيطرة.

لذلك ينبغي في التحليل الأدبي ألا نقول بسرعة:

«الكاتب عنصري» أو «الكاتب يريد السيطرة.»

بل الأفضل أن ندرس:

ما الصورة التي ينتجها النص؟

و: ما الخطاب الثقافي الذي تنتمي إليه هذه الصورة؟

---

**سابعًا: الصور النمطية**

ترتبط أفكار سعيد بمفهوم الصورة النمطية.

فإذا تكررت صورة معينة عن الشرق أو العرب أو المسلمين عبر عدد كبير من النصوص، يمكن أن تتحول إلى تصور ثقافي مستقر.

مثل تصوير العربي دائمًا بوصفه:

بدويًا؛

شهوانيًا؛

عنيفًا؛

متخلفًا؛

مستبدًا؛

غريبًا.

المشكلة هنا ليست في وجود شخصية واحدة بهذه الصفات، وإنما في:

تكرار الصفات نفسها وربطها بجماعة كاملة.

ولهذا ينبغي التمييز بين:

الشخصية الفردية

و: الصورة النمطية عن جماعة بأكملها.

---

**ثامنًا: الاستشراق والأدب**

لم يكن اهتمام سعيد مقتصرًا على الكتب العلمية أو الدراسات الأكاديمية.

بل اهتم أيضًا بالأدب.

والسبب أن الرواية والشعر والسفر والمذكرات والأعمال الفنية يمكن أن تسهم في بناء تصورات عن الشعوب والثقافات.

ومن هنا يمكن دراسة:

الرواية؛

أدب الرحلات؛

المذكرات؛

المسرح؛

السينما؛

الصحافة؛

من أجل معرفة الطريقة التي يتم بها تمثيل الآخر.

وهذا مهم جدًا في دراسة الأدب العربي، لأن بعض الروايات العربية نفسها قد تعيد إنتاج صور معينة عن:

الغرب؛

أوروبا؛

الأمريكيين؛

الأفارقة؛

الآسيويين؛

الأقليات.

وهنا يجب ألا نستخدم سعيد فقط لدراسة:

كيف يصور الغرب الشرق؟

بل يمكن توسيع السؤال إلى:

كيف يبني أي نص صورة الآخر من خلال علاقة القوة والثقافة؟

---

**تاسعًا: الثقافة والإمبريالية**

في كتابه الثاني المهم:

– Culture and Imperialismالثقافة والإمبريالية

انتقل سعيد من التركيز على الاستشراق إلى دراسة أوسع للعلاقة بين الثقافة والإمبريالية.

صدر الكتاب أول مرة سنة ١٩٩٣، ودرس فيه العلاقة بين الأدب والثقافة والمشروع الإمبريالي، وخاصة في الأدب الغربي في القرنين التاسع عشر والعشرين.

ومن الأعمال التي ناقشها سعيد روايات مثل:

Mansfield Parkلجين أوستن؛

Heart of Darknessلجوزف كونراد؛

وغيرها من الأعمال، محاولًا قراءة الأدب في علاقته بالتاريخ الإمبريالي. كما اهتم بأدب كتّاب من العالم المستعمَر الذين قدموا أصواتًا مضادة أو مقاومة للخطاب الإمبريالي.

---

عاشرًا: الأدب والسياق التاريخي

من هنا تظهر إحدى أهم أفكار سعيد في دراسة الأدب:

لا ينبغي فصل العمل الأدبي بصورة كاملة عن التاريخ الذي أنتجه.

فالرواية قد تتحدث عن:

الأسرة؛

الحب؛

السفر؛

المدينة؛

العلاقات الاجتماعية؛

لكنها قد تكون في الوقت نفسه مرتبطة بسياق تاريخي أوسع.

ولهذا يمكن أن نسأل:

ما الأحداث التاريخية التي تحيط بالنص؟

و: كيف تظهر آثار الاستعمار أو الإمبريالية في العمل؟

و: هل يتجاهل النص وجود علاقة استعمارية في الخلفية أم يجعلها ظاهرة؟

---

**الحادي عشر: الثقافة والمقاومة**

لا يرى سعيد الثقافة بوصفها أداة للهيمنة فقط.

فالثقافة يمكن أن تكون أيضًا مجالًا للمقاومة.

فالأدباء الذين عاشوا في المجتمعات المستعمَرة أو ما بعد الاستعمارية يستطيعون أن يقدموا:

صورة مختلفة عن الذات؛

نقدًا للخطاب الاستعماري؛

استعادة للتاريخ؛

صوتًا للجماعات المهمشة؛

إعادة تعريف للهوية.

ولهذا اهتم سعيد في Culture and Imperialismبأعمال كتّاب مثل إيمي سيزير، فرانز فانون، تشينوا أتشيبي، وسلمان رشدي وغيرهم، في سياق أوسع من علاقة الثقافة بالإمبريالية والمقاومة.

---

**الثاني عشر: الاستشراق واللغة**

للغة أهمية كبيرة في بناء صورة الآخر.

فالأوصاف التي يستخدمها الكاتب ليست محايدة دائمًا.

مثلًا، هناك فرق بين أن توصف جماعة بأنها:

«متحضرة»

أو: «بدائية»

أو:

«غريبة»

أو:

«متخلفة»

فاللغة لا تصف فقط، بل يمكن أن تنتج ترتيبًا ضمنيًا للقيم.

ولهذا يمكن في التحليل الأدبي دراسة:

الصفات؛

الأوصاف؛

الاستعارات؛

التشبيهات؛

الصور المتكررة؛

طريقة تسمية الآخر؛

طريقة الحديث عن المكان والثقافة.

---

**الثالث عشر: سعيد والمرأة والشرق**

من المفيد أيضًا الانتباه إلى تمثيل المرأة في الخطاب الاستشراقي.

ففي بعض الكتابات الاستشراقية ظهرت المرأة الشرقية بوصفها:

غامضة؛

شهوانية؛

خاضعة؛

محجبة؛

موضوعًا للرغبة؛

وأصبحت هذه الصور جزءًا من بعض التصورات الغربية عن الشرق.

لكن عند استخدام هذا المحور في البحث يجب أن يكون التحليل قائمًا على النص نفسه، لا على افتراض أن كل تمثيل للمرأة الشرقية هو تمثيل استشراقي.

---

**الرابع عشر: الفرق بين سعيد وهول**

هناك تقاطع واضح بين سعيد وستيوارت هول، وخاصة في موضوع التمثيل.

لكن التركيز مختلف.

ستيوارت هول

يهتم بصورة عامة بـ:

الثقافة؛

الهوية؛

التمثيل؛

إنتاج المعنى؛

الصورة النمطية؛

السلطة.

والسؤال المركزي:

كيف ينتج النص أو الخطاب معنى معينًا عن الأشخاص والثقافات؟

إدوارد سعيد

يركز بصورة أكبر على:

الشرق والغرب؛

الاستشراق؛

الاستعمار؛

الإمبريالية؛

السلطة والمعرفة؛

تمثيل الآخر.

والسؤال المركزي:

كيف أنتج الخطاب الغربي صورة عن الشرق، وما علاقة هذه الصورة بعلاقات القوة التاريخية؟

---

**الخامس عشر: الفرق بين سعيد وبهابها**

هناك أيضًا علاقة واضحة بين سعيد وبهابها، لأن كليهما ينتمي إلى مجال الدراسات ما بعد الاستعمارية.

لكن الفرق مهم:

سعيد يركز بصورة أكبر على: تمثيل الآخر وعلاقة المعرفة بالسلطة والاستعمار.

بهابها يركز بصورة أكبر على: التفاعل بين الثقافات والهجنة والفضاء الثالث وتفاوض الهوية. وبعبارة مختصرة: سعيد: كيف صُوِّر الآخر؟ بهابها: ماذا يحدث للهوية عندما تتفاعل الثقافات؟

---

**السادس عشر: أهم المفاهيم التي نحتاج إليها في هذا المقرر**

لا نحتاج إلى دراسة كل مشروع إدوارد سعيد، ولذلك يمكن التركيز على المفاهيم الآتية:

| المفهوم | السؤال في التحليل الأدبي |
| --- | --- |
| الاستشراق | كيف بُنيت صورة الشرق؟ |
| التمثيل | كيف صُوّر الآخر؟ |
| الآخر | من هو «نحن» ومن هو «هم»؟ |
| الصورة النمطية | هل يقدم النص صورة ثابتة ومختزلة عن جماعة؟ |
| المعرفة والسلطة | من يملك حق تعريف الآخر ووصفه؟ |
| الاستعمار والإمبريالية | ما علاقة النص بالسياق الاستعماري؟ |
| الخطاب | ما الأفكار الثقافية التي تحكم طريقة تمثيل الآخر؟ |
| المقاومة | هل يقدم النص صورة مضادة للخطاب المهيمن؟ |

---

**السابع عشر: حدود استخدام نظرية سعيد**

من المهم عدم تحويل كل علاقة بين الشرق والغرب إلى استشراق.

فليس كل نص غربي يتحدث عن العرب أو المسلمين نصًا استشراقيًا.

كما أن وجود:

شخصية غربية؛

مكان أوروبي؛

حديث عن العرب؛

اختلاف ثقافي؛

لا يكفي وحده لتطبيق نظرية سعيد.

يجب البحث عن طريقة تمثيل الآخر وعن وجود صور نمطية أو ثنائيات ثقافية أو خطاب يجعل الشرق والغرب في علاقة غير متكافئة.

وكذلك لا ينبغي القول:

«هذا النص استشراقي.»

دون تقديم الأدلة النصية والتاريخية التي تثبت ذلك.

الأفضل أن نقول:

«يعتمد النص في تمثيله للشرق على مجموعة من التصورات التي يمكن قراءتها في ضوء مفهوم الاستشراق.»

---

**الثامن عشر: أهمية إدوارد سعيد في دراسة الأدب العربي**

تظهر أهمية سعيد في هذا المقرر من إمكان استخدام أفكاره لدراسة:

صورة الشرق في الأدب الغربي؛

صورة الغرب في الأدب العربي؛

تمثيل الآخر؛

الاستعمار وآثاره الثقافية؛

أدب الرحلات؛

الرواية التاريخية؛

الأدب العربي في مرحلة الاستعمار؛

الرواية العربية المعاصرة التي تتناول الغرب؛

صورة العربي والمسلم في الأدب العالمي؛

العلاقة بين الثقافة والسلطة.

وبذلك يمكن أن يساعد سعيد الطالب على قراءة الأدب ليس بوصفه نصًا منفصلًا عن التاريخ، بل بوصفه جزءًا من شبكة من الخطابات والعلاقات الثقافية والتاريخية.

---

خلاصة الدرس

يمكن تلخيص مقاربة إدوارد سعيد في مجموعة من الأسئلة:

من يمثل الآخر؟

كيف يمثله؟

ما الصفات التي ينسبها إليه؟

هل تتحول هذه الصفات إلى صورة نمطية؟

ما العلاقة بين هذه الصورة وبين التاريخ والسلطة؟

هل يعيد النص إنتاج الخطاب السائد أم يقاومه؟

ومن هنا يمكن القول إن أهمية سعيد في دراسة الأدب والثقافة تكمن في لفت الانتباه إلى أن تمثيل الآخر ليس عملية محايدة دائمًا، وأن الأدب يمكن أن يتقاطع مع علاقات القوة والتاريخ والاستعمار والإمبريالية.

---

أهم المصادر

[originally published ١٩٧٩Said, Edward W. Orientalism. Vintage Books, ١٩٧٨.]

[originally ١٩٩٤Said, Edward W. Culture and Imperialism. Vintage Books, published١٩٩٣.]

Said, Edward W. The World, the Text, and the Critic. Harvard University Press, ١٩٨٣.

Said, Edward W. Covering Islam: How the Media and the Experts Determine How We See the Rest of the World. Vintage, ١٩٩٧.

---

# الدرس الثاني عشر

## التطبيق

## الدرس الثالث عشر

### من المقاربة الاجتماعية والثقافية إلى تحليل النص الأدبي

**تمهيد**

بعد دراسة بعض الاتجاهات الاجتماعية والثقافية في تحليل الأدب، والتعرّف إلى نظريات بيير بورديو، وستيوارت هول، وهومي بهابها، وإدوارد سعيد، يبقى سؤال مهم:

كيف نستخدم هذه النظريات فعليًا في تحليل نص أدبي؟

فمعرفة المفاهيم النظرية لا تكفي وحدها لإجراء دراسة أدبية. فالباحث يحتاج إلى الانتقال من النظرية إلى النص، ومن المفهوم العام إلى الشاهد النصي، ثم إلى التحليل والنتيجة.

لذلك يهدف هذا الدرس إلى توضيح الخطوات الأساسية التي يمكن للباحث اتباعها عند إعداد دراسة اجتماعية ثقافية لنص أدبي.

---

أولًا: النص الأدبي بوصفه ظاهرة اجتماعية وثقافية

لا يُنظر إلى النص الأدبي في المقاربة الاجتماعية والثقافية بوصفه مجموعة من الكلمات أو الأحداث فقط، بل بوصفه نصًا يرتبط بمجتمع وثقافة وتاريخ وعلاقات سلطة وهوية.

يمكن أن ندرس النص من خلال أسئلة مثل:

ما المجتمع الذي يصوّره النص؟

ما القيم الثقافية التي تظهر فيه؟

كيف تُبنى العلاقات بين الشخصيات؟

كيف تظهر الطبقات الاجتماعية؟

كيف تمثَّل الهوية؟

كيف يُصوَّر الآخر؟

هل تظهر في النص علاقات قوة أو هيمنة؟

كيف تتفاعل الشخصيات مع الاختلاف الثقافي؟

إذن، لا يعني التحليل الاجتماعي الثقافي أن نترك النص ونتحدث عن المجتمع فقط، بل يجب أن نصل دائمًا بين النص والسياق الاجتماعي والثقافي.

---

ثانيًا: من الموضوع إلى الإشكالية

من أهم خطوات البحث العلمي أن يميز الباحث بين الموضوع والإشكالية.

الموضوع

الموضوع يكون عامًا، مثل:

الهوية في رواية معينة.

أو: المرأة في رواية معينة.

أو: تمثيل الآخر في رواية عربية.

لكن هذه العناوين لا تحدد بعدُ ما الذي يريد الباحث دراسته بالضبط.

الإشكالية

الإشكالية تحدد المشكلة التي يريد الباحث تحليلها.

مثلًا:

كيف تُبنى هوية الشخصيات في الرواية من خلال علاقتها بالاختلاف الثقافي؟

أو: كيف تمثّل الرواية العلاقة بين الطبقات الاجتماعية المختلفة؟

أو: كيف يُصوَّر الآخر في الرواية، وما علاقة هذا التصوير بعلاقات القوة؟

إذن: الموضوع = مجال الدراسة

الإشكالية = السؤال الذي يريد الباحث الإجابة عنه

---

**ثالثًا: اختيار النظرية المناسبة**

لا ينبغي للباحث أن يبدأ بالقول:

أريد أن أستخدم نظرية بورديو.

بل الأفضل أن يبدأ من النص والمشكلة البحثية، ثم يسأل:

أي نظرية تساعدني على فهم هذه المشكلة بصورة أفضل؟

يمكن تبسيط ذلك في الجدول الآتي:

| النظرية | السؤال الأساسي |
| --- | --- |
| بورديو | كيف يرتبط الأدب بالبنية الاجتماعية ومواقع القوة ورأس المال والذوق؟ |
| ستيوارت هول | كيف ينتج النص المعاني ويمثّل الهوية والثقافة والآخر؟ |
| هومي بهابها | ماذا يحدث للهوية والثقافة عند التفاعل بين ثقافتين أو أكثر؟ |
| إدوارد سعيد | كيف يُمثَّل الآخر، وما علاقة هذا التمثيل بالسلطة والمعرفة والاستعمار؟ |

إذن، ليست النظريات الأربع متشابهة، حتى لو كان بينها بعض نقاط الالتقاء.

---

**رابعًا: من المفهوم النظري إلى المؤشر النصي**

هذه من أهم خطوات التحليل.

لا يكفي أن يقول الباحث:

تظهر الهجنة الثقافية في الرواية.

أو: يظهر رأس المال الثقافي عند الشخصية.

أو: تمثّل الرواية الآخر بصورة نمطية.

بل يجب أن يسأل:

أين تظهر هذه الفكرة في النص؟ وكيف تظهر؟

أي يجب الانتقال من:

المفهوم النظري → المؤشر النصي → التحليل → النتيجة

مثال

إذا استخدم الباحث مفهوم الهجنة عند هومي بهابها، فعليه أن يبحث عن مؤشرات نصية تدل على تداخل ثقافي، مثل:

اللغة؛

العادات؛

طريقة التفكير؛

الممارسات الثقافية؛

العلاقة بين ثقافتين؛

التفاوض بين قيم مختلفة؛

ظهور هوية لا تنتمي بصورة كاملة إلى ثقافة واحدة.

ثم يفسر هذه الشواهد في ضوء مفهوم الهجنة.

أما مجرد وجود شخصية مهاجرة أو شخص يعيش في بلد أجنبي، فلا يكفي وحده لإثبات الهجنة.

---

**خامسًا: الفرق بين الشاهد والوصف والتحليل**

يجب على الباحث أن يميز بين ثلاثة مستويات:

١. الشاهد النصي

ما الذي يقوله النص؟

٢. الوصف

ما الظاهرة الموجودة في النص؟

٣. التحليل

ماذا يعني وجود هذه الظاهرة في ضوء النظرية؟

مثال مبسط: تظهر الشخصية وهي تستخدم مفردات من لغتين مختلفتين.

هذا وصف.

لكن إذا قال الباحث:

يكشف هذا الاستخدام اللغوي عن تداخل بين المرجعيتين الثقافيتين للشخصية، وهو ما يمكن قراءته في ضوء مفهوم الهجنة الثقافية عند بهابها.

فقد انتقل إلى التحليل النظري.

إذن، التحليل ليس مجرد إعادة وصف النص، بل هو تفسير النص بواسطة مفهوم نظري محدد.

---

**سادسًا: الفرق بين المقاربة الاجتماعية والمقاربة الثقافية**

رغم وجود تداخل بينهما، يمكن التمييز بصورة مبسطة:

المقاربة الاجتماعية

تركز بصورة أكبر على:

الطبقات الاجتماعية؛

العلاقات الاجتماعية؛

المؤسسات؛

المكانة الاجتماعية؛

السلطة؛

التفاوت؛

علاقات الجنسين؛

الإنتاج الأدبي وموقع الكاتب.

وهنا يمكن أن تكون مفاهيم بورديو مفيدة بصورة خاصة.

المقاربة الثقافية

تركز بصورة أكبر على:

الهوية؛

الثقافة؛

التمثيل؛

الاختلاف؛

الصور النمطية؛

التفاعل بين الثقافات؛

صورة الذات والآخر؛

إنتاج المعنى.

وهنا يمكن أن تكون مفاهيم هول وبهابها وسعيد مفيدة بصورة خاصة.

لكن هذا التقسيم ليس صارمًا؛ فالموضوعات الاجتماعية والثقافية تتداخل في كثير من النصوص.

---

سابعًا: كيف ننتقل من النظرية إلى أسئلة البحث؟

يمكن تحويل المفاهيم النظرية إلى أسئلة بحثية.

بورديو

بدل أن نقول:

سندرس الرواية وفق نظرية بورديو.

يمكن أن نسأل:

كيف يظهر الحقل الاجتماعي في الرواية؟

ما أشكال رأس المال التي تمتلكها الشخصيات؟

كيف تؤثر المكانة الاجتماعية في علاقات الشخصيات؟

كيف يظهر الذوق بوصفه علامة على التمييز الاجتماعي؟

كيف تظهر الهيمنة الرمزية أو الذكورية؟

ستيوارت هول

يمكن أن نسأل:

كيف تمثَّل الهوية في الرواية؟

كيف يُبنى الفرق بين «نحن» و«هم»؟

كيف تظهر الصور النمطية؟

كيف يمثل النص المرأة أو المهاجر أو الآخر؟

كيف ترتبط عملية التمثيل بعلاقات القوة؟

هومي بهابها

يمكن أن نسأل:

كيف تتشكل الهوية في فضاء التفاعل بين الثقافات؟

هل تظهر الهجنة الثقافية في الشخصيات؟

كيف تتفاوض الشخصية مع القيم الثقافية المختلفة؟

هل يظهر الفضاء الثالث بوصفه مجالًا لإنتاج هوية جديدة؟

كيف تظهر الازدواجية أو المحاكاة؟

إدوارد سعيد

يمكن أن نسأل:

كيف يُمثَّل الآخر في النص؟

ما الصفات التي تُنسب إلى الآخر؟

هل تظهر صورة نمطية ثابتة عن الشرق أو الغرب؟

كيف ترتبط عملية التمثيل بالمعرفة والسلطة؟

ما علاقة التمثيل بالسياق الاستعماري أو الإمبريالي؟

---

**ثامنًا: خطأ مهم: استخدام عدة نظريات في بحث واحد**

وجود أربع نظريات في هذا المقرر لا يعني أن الطالب يجب أن يستخدم النظريات الأربع في بحثه.

أحيانًا تكون نظرية واحدة كافية.

فإذا كانت المشكلة تتعلق بالهوية والتمثيل، فقد تكون مفاهيم هول مناسبة.

وإذا كانت تتعلق بالهجنة والتفاعل بين الثقافات، فقد تكون مفاهيم بهابها أكثر مباشرة.

وإذا كانت تتعلق بالطبقة والمكانة ورأس المال والذوق، فقد تكون نظرية بورديو مناسبة.

وإذا كانت تتعلق بتمثيل الشرق والآخر وعلاقة المعرفة بالسلطة والاستعمار، فقد تكون نظرية سعيد مناسبة.

استخدام عدة نظريات لا يجعل البحث بالضرورة أقوى؛ بل قد يؤدي إلى تشتت الإطار النظري إذا لم تكن هناك حاجة حقيقية إليها.

---

**تاسعًا: أخطاء شائعة في تطبيق النظريات**

١. ذكر النظرية دون استخدامها

يشرح الباحث النظرية في فصل طويل، ثم لا يستخدم مفاهيمها في تحليل النص.

٢. تحويل النص إلى مجرد أمثلة للنظرية

يبدأ الباحث من النظرية ويحاول إجبار كل ما في النص على الانسجام معها.

٣. عدم وجود شواهد نصية

يقدم الباحث أحكامًا عامة دون الاستناد إلى مقاطع أو مواقف أو حوارات من النص.

٤. الخلط بين المفاهيم

مثل استعمال:

الهوية، الهجنة، التمثيل، الآخر، الاختلاف

بصورة متقاربة وكأنها مفاهيم متطابقة.

كل مفهوم له دلالته وحدوده.

**٥. توسيع النظرية أكثر من اللازم**

ليس كل اختلاف بين شخصيتين «هجنة»، وليس كل تمثيل لشخصية أجنبية «استشراقًا»، وليس كل علاقة بين رجل وامرأة «هيمنة ذكورية».

يجب أن يثبت الباحث ذلك من خلال النص والسياق والمفهوم النظري.

**٦. إهمال السياق**

لا يمكن فهم بعض الظواهر الاجتماعية والثقافية من خلال النص وحده؛ فقد يحتاج الباحث إلى معرفة السياق التاريخي أو الاجتماعي أو الثقافي الذي أنتج النص.

---

عاشرًا: بناء البحث الاجتماعي والثقافي

يمكن تنظيم البحث بصورة بسيطة على النحو الآتي:

١. المقدمة

تقديم الموضوع وأهميته.

٢. مشكلة البحث وإشكاليته

تحديد الظاهرة التي يريد الباحث دراستها.

٣. أسئلة البحث

تحويل الإشكالية إلى أسئلة محددة.

٤. المنهج والإطار النظري

توضيح النظرية والمفاهيم التي سيعتمد عليها الباحث.

٥. التحليل

تقديم الشواهد النصية وتحليلها في ضوء المفاهيم النظرية.

٦. النتائج

استخلاص أهم ما توصل إليه التحليل.

٧. الخاتمة

تقديم خلاصة عامة للبحث.

---

حادي عشر: نموذج مبسط لاختيار النظرية

لنفترض أن الباحث يدرس رواية عربية تتناول شخصية تعيش بين ثقافتين.

يمكن أن يطرح عدة أسئلة مختلفة:

إذا كان السؤال:

كيف تتشكل هوية الشخصية من خلال تمثيلها لذاتها وللآخر؟

يمكن الاستفادة من ستيوارت هول.

إذا كان السؤال:

كيف تتشكل هوية جديدة نتيجة التفاعل بين ثقافتين؟

يمكن الاستفادة من هومي بهابها.

إذا كان السؤال:

ما المكانة الاجتماعية التي تحتلها الشخصية، وما أنواع رأس المال التي تمتلكها؟

يمكن الاستفادة من بورديو.

إذا كان السؤال:

كيف تمثل الرواية الآخر في سياق علاقة تاريخية بين الشرق والغرب؟

يمكن الاستفادة من إدوارد سعيد.

إذن، النص الواحد يمكن أن يسمح بقراءات مختلفة، ولكن السؤال البحثي هو الذي يحدد المقاربة المناسبة.

---

ثاني عشر: حدود المقاربة الاجتماعية والثقافية

رغم أهمية هذه المقاربة، فإنها لا تكفي بالضرورة لتحليل جميع جوانب النص الأدبي.

فقد يحتاج الباحث، بحسب موضوعه، إلى الاهتمام أيضًا بـ:

اللغة والأسلوب؛

السرد؛

الزمن؛

المكان؛

الشخصيات؛

الصورة؛

الرمز؛

البنية الفنية.

لذلك لا ينبغي أن يتحول التحليل الاجتماعي والثقافي إلى تجاهل للأدبية.

فالهدف ليس دراسة المجتمع بدل الأدب، وإنما فهم كيف يتفاعل الأدب مع المجتمع والثقافة والتاريخ والسلطة والهوية.

---

**ثالث عشر: خلاصة المقرر**

يمكن تلخيص مسار هذا المقرر في أربع أسئلة رئيسة:

| النظرية | السؤال المركزي |
| --- | --- |
| بورديو | في أي بنية اجتماعية وثقافية يُنتَج الأدب وتُكتسب القيمة والمكانة؟ |
| ستيوارت هول | كيف ينتج الأدب المعاني ويمثل الهوية والثقافة والآخر؟ |
| هومي بهابها | ماذا يحدث للهوية والثقافة عند التفاعل بين الثقافات؟ |
| إدوارد سعيد | كيف يُمثَّل الآخر، وما علاقة التمثيل بالسلطة والاستعمار؟ |

ومن هنا يمكن صياغة قاعدة أساسية في التحليل الاجتماعي والثقافي:

لا تبدأ بالنظرية، بل ابدأ بالسؤال؛ ولا تكتفِ بالمفهوم، بل ابحث عن مؤشراته في النص؛ ولا تكتفِ بالشاهد، بل فسّره في ضوء الإطار النظري.

مخطط العمل

النص الأدبي

↓

ملاحظة الظاهرة

↓

تحديد المشكلة

↓

صياغة سؤال البحث

↓

اختيار النظرية المناسبة

↓

تحديد المفاهيم الأساسية

↓

جمع الشواهد النصية

↓

تحليل الشواهد

↓

استخلاص النتائج

وبذلك ينتقل الباحث من قراءة النص إلى تحليل النص، ومن الملاحظة إلى البحث العلمي.